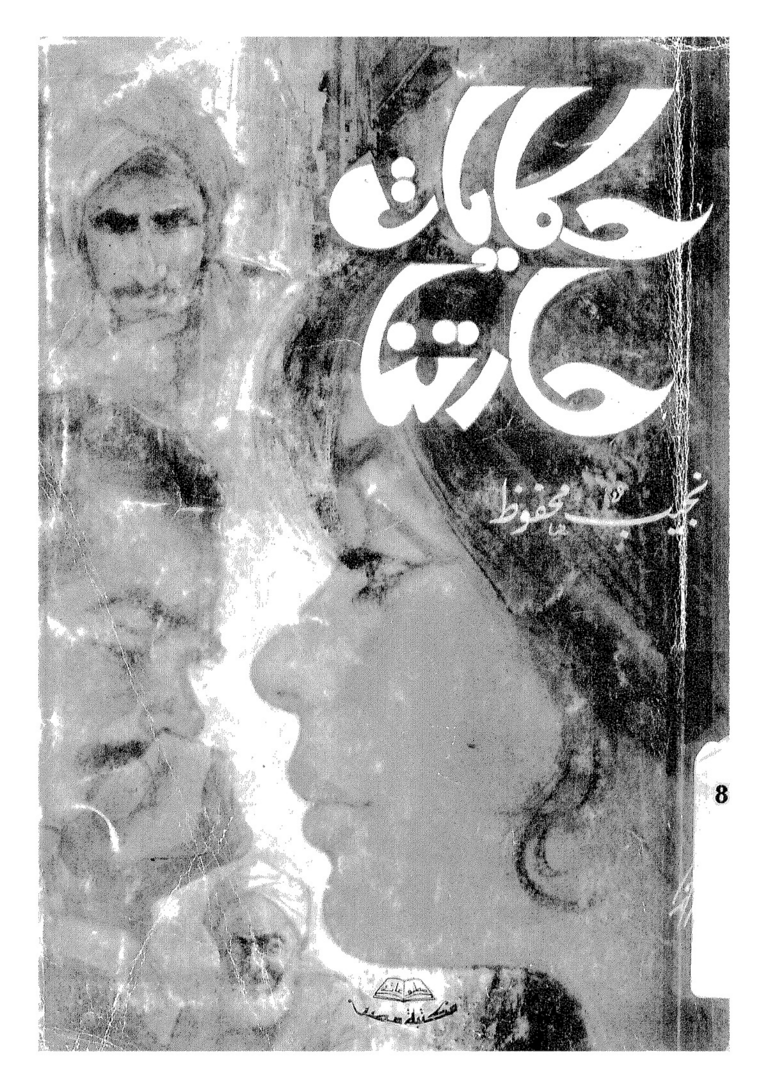

حکایات حارتنا
نجیب محفوظ
8

مطبوعات مكتبة مصر

حكايات حارتنا

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

الحكاية رقم « ١ »

يروق لى اللعب فى الساحة بين القبور والتكية . ومثل جميع الأطفال أرنو إلى أشجار التوت بحديقة التكية . أوراقها الخضر هى ينابيع الخضرة الوحيدة فى حارتنا . وثمارها السود مثار الأشواق فى قلوبنا الغضة . وها هى التكية مثل قلعة صغيرة تحدق بها الحديقة ، بوابتها مغلقة عابسة ، دائما مغلقة ، والنوافذ مغلقة فالمبنى كله غارق فى البعد والانطواء والعزلة ، تمتد أيدينا إلى سوره كما تمتد إلى القمر .

وأحيانا يلوح فى الحديقة ذو لحية مرسلة وعباءة فضفاضة وطاقية مزركشة فنهتف كلنا .

ـ « يا درويش .. إن شا الله تعيش » .

ولكنه يمضى متأملا الأرض المعشوشبة أو يتمهل عند جدول ماء ، ثم لا يلبث أن يختفى وراء الباب الداخلى .

ـ من هؤلاء الرجال يا أبى ؟

ـ إنهم رجال الله ..

ثم بنبرة ذات معنى :

ـ ملعون من يكدر صفوهم !

ولكن قلبى مولع بالتوت وحده .

وينهكنى اللعب ذات يوم فأجلس على الأرض لأستريح ثم أغفو . أستيقظ فأجدنى وحيدا فى الساحة ، حتى الشمس توارت وراء السور العتيق، ونسائم الربيع تهبط مشبعة بأنفاس الأصيل. على أن أمرق من القبو إلى الحارة قبل أن يدلهم الظلام . وأنهض متوثبا ولكن إحساسا خفيا يساورنى بأننى غير وحيد ، وأننى أهيم فى مجال جاذبية لطيف ، وأن ثمة نظرة رحيبة تستقر على قلبى ، فأنظر ناحية التكية . هناك تحت شجرة التوت الوسيطة يقف رجل . درويش ولكنه ليس كالدراويش الذين رأيت من قبل . طاعن فى الكبر ، مديد فى الطول ، وجهه بحيرة من نور مشع . عباءته خضراء وعمامته الطويلة بيضاء وفخامته فوق كل تصور وخيال . ومن شدة حملقتى فيه أتمل بنوره فيملأ منظره الكون . وخاطر طيب يقول لى إنه صاحب المكان وولى الأمر ، وأنه ودود بخلاف الآخرين . أقترب من السور ثم أقول بابتهال :

— إنى أحب التوت ..

فلم ينبس و لم يتحرك فأتوهم أنه لم يسمعنى ، أكرر بصوت أعمق :

— إنى أحب التوت ..

يخيل إلى أنه يشملنى بنظرة ، وصوته الرخيم يقول :

— « بلبلى خون دلى خورد وكلى حاصل كرد » .

ويخيل إلى أنه رمى إلى بثمرة فأنحنى نحو الأرض لألتقطها فلا أعثر على شيء ثم أستقيم فأجد مكانه خاليا ، والظلمة تغشى الباب الداخلى .

وأقص القصة على أبى فيرمقنى بارتياب فأؤكدها له فيقول :

— تلك الأوصاف لا تكون إلا للشيخ الكبير ولكنه لا يغادر خلوته !

فأحلف له على صدق بكل مقدس فيسألنى :

— ترى ما معنى الرطانة التى حفظتها ؟

— سمعتها مرارا ضمن تراتيل التكية ..

فيصمت أبى مليا ثم يقول :

— لا تخبر بذلك أحدا .

ويبسط يديه ثم يتلو الصمدية .

وأهرع إلى الساحة فأتخلف وحدى بعد ذهاب الصبيان . أنتظر ظهور الشيخ فلا يظهر . أهتف بصوتى الرفيع :

— « بلبلى خون دلى خورد وكلى حاصل كرد » .

فلا يجيب . أعانى بلاء الانتظار وهو لا يرحم لهفتى .

وأتذكر الحادثة فى زمن متأخر ، أتساءل عن حقيقتها ، هل رأيت الشيخ حقا أو ادعيت ذلك استوهابا للأهمية ثم صدقت نفسى ؟، هل توهمت ما لا وجود له من أثر النوم ولكثرة ما يقال فى بيتنا عن الشيخ الكبير ؟. هكذا أفكر ، وإلا فلماذا لم يظهر الشيخ مرة أخرى ؟. ولماذا يجمع الناس على أنه لا يغادر خلوته ؟. هكذا خلقت أسطورة وهكذا بددتها . غير أن الرؤية المزعومة للشيخ قد استقرت فى أعماق نفسى كذكرى مفعمة بالعذوبة . كما أننى ما زلت مولعا بالتوت .

الحكاية رقم « ٢ »

شمس الضحى تسطع والسماء صافية . من موقفى فوق السطح أرى المآذن والقباب ، وأرى غرابا واقفا على وتد مغروز فى سور السطح مربوط به حبل الغسيل . أرمق السطح الملاصق فيتحلب ريقى . تحدثنى نفسى بأن أذهب إلى ست أم زكى لأحظى بشىء من الحلوى . وأعبر السور . أمضى نحو المنور ، أطل من نافذة فيه مخلوعة الزجاج ، أرى تحت المنور مباشرة ست أم زكى عارية تماما . تجلس على كنبة تتشمس ، تمشط شعرها ، عارية تماما .. منظر غريب وباهر ، وهى فى ضخامة بقرة . وأهتف :

— يا تيزة !

ترتعب ، تنظر إلى فوق ، لا تلبث أن تضحك ، تصيح بى :

— يا عكروت .. أنزل ..

أهبط بسرعة ثم أقف عند الباب بحذر مبهم وأتساءل :

— أدخل ؟

وتسمح فأدخل ، أقترب من مجلسها فترمقنى بنظرة باسمة وتقول :

— وقعت يا بطل ..

وتستلقى على بطنها وتقول :

— دلك لى ظهرى .

أشمر عن ساعدى ، أدلك ظهرها بحماس ورضا ، أشم رائحة جسد بشرى معبق بالصابون والقرنفل ، وهى تتمتم :

ـــ تسلم يداك !

ثم بمزاح :

ـــ أنت عفريت من الجنة !

ثم وهى تضحك :

ـــ الكتكوت الفصيح يخرج من البيضة يصيح .

ويزداد حماسى فى العمل فتقول :

ـــ ارفع يدك لفوق يا شيطان ، هل ستخبر أمك ؟

ـــ كلا .

فتضحك وتقول :

ـــ وعارف أيضا أنه يوجد ما لا يقال ، حقيقة أنك شيطان ، هل تعلمت التدليك فى الكتاب ؟ ماذا تدرس فى الكتاب ؟

ـــ الفاتحة وألف باء .

ـــ ربنا يحفظك وأشوفك ماشطة ، ماذا ستأكل اليوم ؟

ـــ بامية .

ـــ عظيم سأتغدى عندكم .

زياراتها لبيتنا ندوات للبهجة والمرح ، تنثال الملح من فيها بلا حساب ، وكذلك النكات المكشوفة ، فتحاول أمى أن تبعدنى ولكنى أرجع ، وتشير لها إشارات خفية محذرة فأتشبث بالبقاء وتتمادى هى فى الدعابة . وتسألها أمى معاتبة :

ـــ متى تصلين وتصومين ؟

فتجيب :

ـــ فى آخر شهر قبل يوم القيامة .

فى الخمسين ، مهذارة مرحة طروب ولكنها لم تنزلق لسوء . وعمل ابنها زكى نجارا فى حارتنا فسار بين الناس مرفوع الرأس . وهى تدمن التدخين والقهوة وسماع أسطوانات منيرة المهدية ، أرملة ، فى كل بيت لها صديقة حميمة ، لم تشتبك فى مشاجرة واحدة فى حارتنا الحافلة بالمشاحنات .

* * *

وتتنهد أمى ذات يوم وتقول :

ـــ مسكينة يا أم زكى ، ربنا يرعاك ويشفيك ..

تتوعك صحتها ، وتأخذ فى التدهور ، تهزل بسرعة مذهلة كأنها كرة ثقبت ، يترهل جسمها فيغدو طيات من الجلد خاوية ، وتخيب فى شفائها كافة الوصفات . وتفتى حكمة حارتنا الخالدة بأن مرضها ليس مرضا من الأمراض المعروفة ولكنه فعل من أفعال « الأسياد » وألا شفاء لها إلا بالزار . ويجىء اليوم المشهود فيكتظ بيت جارتنا بالنساء ، ويعبق البخور ، وتتسلط عليه جوقة من السودانيات يكتنفهن الغموض والأسرار . وأطل برأسى من المنور فأرى صديقتى فى مشهد جديد ، تجلس على عرش فى عباءة مزركشة بالتلى والترتر ، متوجة الرأس بتاج من العاج تتدلى منه عناقيد الخرز مختلف الألوان ، منقوعة القدمين فى وعاء من ماء الورد تستقر فى قعره حبات من البن الأخضر . وتدق الدفوف وتهزج الحناجر

النحاسية بالأناشيد المرعشة ، فتفوح فى الجو أنفاس العفاريت ، ويدعو كل عفريت صاحبته المختارة من بين المدعوات للرقص ، فتموج القاعة بالحركات ، وتتوهج بالتأوهات ، وتذوب الأجساد فى الأرواح . وها هى أم زكى تتلوى بعنف كأنما ردت إلى جنون الشباب ، وعن فيها المزين بالأسنان المذهبة يصدر صفير حاد ، ثم تركض دائرة حول العرش ، ويتحول ركضها إلى إندفاع رهيب ، وتدور حتى تترنح من الإعياء وتتهاوى مغشيا عليها ..

وجلجلت زغرودة وارتفع صوت مبتهلا :

ـ ليشهدنا خاتم الرسل الكرام .

* * *

وها هى الأيام تمر .

وصحة صديقتى لا تتحسن .

لا تمزح الآن ولا تضحك وتتساءل فى جزع :

ـ ماذا جرى لى ؟.. ماذا جرى لى يارب ؟!. أين أنت يا أم زكى ؟!

ويضطر المعلم زكى أخيرا إلى نقلها إلى قصر العينى . وتودع عيناى الدامعتان الكارو وهى تتأرجح بها . وتلمحنى واقفا فتلوح لى بيدها وتقول :

ـ ادع لى فإن الله يستجيب لدعاء الصغار .

فأرفع عينى إلى السماء وأتمتم : « يارب .. رجع لنا تيزة أم زكى » .

ولكن كأن الكارو حملتها إلى بلاد الواق الواق .

الحكاية رقم « ٣ »

اليوم جميل ولكنه يعبق بسر .

أبى ينظر إلى باهتمام . يبتسم لى برقة وهو يحتسى قهوته . وهو يهم بالذهاب يداعب شعرى ويربت على منكبى بحنان ثم يمضى .

وأمى تقوم بعملها اليومى بعصبية ، تغضى عن عبثى وتقـول لى مشجعة :

ــ العب يا حبيبى ..

لا نظرات تهديد ولا زجر ولا وعيد .

وأصعد إلى السطح بعض الوقت ولما أرجع أجد أمامى جارتنا الشامية أم برهوم . أعدو إلى المطبخ لأخبر أمى ولكنى لم أجدها . وأنادى عليها بلا جدوى فتقول لى أم برهوم :

ــ نينتك ذهبت فى مشوار ، وأنا معك حتى ترجع ..

فأقول محتجا :

ــ ولكنى أريد أن ألعب فى الحارة .

ــ وتتركنى وحدى وأنا ضيفتك ؟

وأصبر متضايقا .

ويدق الباب فتومئ لى بالانتظار وتذهب . تغيب دقيقة وإذا بعم حسن الحلاق ومساعده يدخلان يا سمين فقلت لهما من فورى :

ـــ أبى خرج .

فقال العجوز :

ـــ نحن ضيوف !، سنريك لعبة فريدة .

وجلس على كنبة وهو يبسمل ثم قال وهو يخرج من حقيبته أدوات بيضاء لامعة :

ـــ يسرك بلا شك أن تتعلم كيف تستعمل هذه الأدوات .

وأهرع نحوه متملصا من ارتباكى !

ويجىء مساعده بمقعد فيجلسنى عليه أمام المعلم قائلا :

ـــ هكذا أفضل .

وإذا بيديه تكبلاننى من الذراعين والساقين بقوة وإحكام فكـأنها ألصقت بالغراء والمسامير ، فصرخت غاضبا :

ـــ ابعد عنى .

واستغثت بأم برهوم ولكنها كانت فص ملح ذاب ..

ولم أفهم شيئا مما يحدث حتى بدأت العملية الرهيبة ، ها أنا أعانى هجمة وحشية طاغية لا أستطيع لها دفعا ولا منها مفرا . وها هو الألم الحاد القاسى ينشب أظافره الشوكية فى لحمى وينساب بمكر شيطانى إلى أطـراف جسمى وصميم قلبى. وها هو صراخى يدك الجدران ويجتاح أرجاء حارتنا.

* * *

لا أدرى ماذا يدور مدة من الزمن . أغوص فى الماء بين اليقظة والنوم . تمر بى أجيال من الألوان والمخاوف والأحزان .

وعند نقطة من الزمن تلوح لى أمى بوجه يرنو بالاعتذار والتشجيع .

وقبل أن أفتح فمى محتجا أو متهما تضع بين يدى هدايا الشيكولاته والملبس .

وأعيش أياما بين ذكريات أليمة وكنوز من الحلوى بألوانها البهيجة .. ويمتلئ البيت بالإخوة والأخوات .

وأنتقل من مكان إلى مكان مفرجا بين فخذى مبعدا بيدى الجلباب عن جسدى .

الحكاية رقم « ٤ »

وأنا ماض نحو القبو ينفتح باب بيت القيروانى تاجر الدقيق وتبرز منه بناته الثلاث . منبع نور يتدفق فيبهر القلب والبصر . بيضاوات ملونات الشعر والأعين سافرات الوجوه ينفثن ملاحة نقية . الدوكار ينتظرهن فأتسمر أنا بين الدوكار وبينهن . ويرين ذهولى فتضحك وسطاهن وهى أشدهن امتلاء وأغلظهن شفة وتقول :

ـــ ما له يسد الطريق !

لا أتحرك فتخاطبنى مداعبة :

ـــ أفق يا أنت !

وأقول متأثرا بدفقة حياة مبهمة :

ـــ بلبلى خون دلى خورد وكلى حاصل كرد .

فيغرقن فى الضحك وتقول الكبرى :

ـــ إنه درويش .

فتقول الوسطى :

ـــ إنه مجنون !

وألقى بنفسى فى ظلمة القبو فأمضى مهرولا حتى أخرج إلى نور الساحة أمام التكية . فى رأسى حماس وفى قلبى نذير نشوة البراعم قبل أن تتفتح .

صورهن الباهرة مستكنة فى متحف الأعماق .

بذور حب لم يتح لها أن تنمو لأنها غرست قبل أوانها .

الحكاية رقم « ٥ »

اليوم سعيد .

سأذهب فى صحبة أمى إلى زيارة حرم المأمور .

هطلت الأمطار فى الصباح الباكر ولكن الجو رق وصفا عند الضحى وأشرقت الشمس . المياه تغمر فجوات الطريق وتخدد جوانبه ولكننى سعيد بزيارة حرم المأمور .

امرأة عملاقة ، سمراء دكناء ، فى نقرة ذقنها وشم ، ونبرتها ريفية غريبة ، وضحكتها عالية ، وقطتها غزيرة الشعر نقية البياض ودائما تسبح بذكر الله .

وتعانق أمى مرحبة وأنا أنتظر . تلتفت نحوى ضاحكة وهى تعبث

بشعر رأسي ، ترفعني بين يديها فأرتفع فوق الأرض عاليا ، تضمني إلى صدرها فأغوص فى أعماق طرية ، وأشعر ببطنها مثل حشية وثيرة ينبعث منها إلى جوارحي دفء مؤثر .

أسير وراهما وأنا أسوى ما تشعث من شعرى وملابسي ولما أفق من نفحة الدفء .

وتقول لأمي :

ـ بت أومن بأن القبو مسكون بالعفاريت ..

فتبسمل أمى فتقول الأخرى :

ـ إنهم يخرجون عقب منتصف الليل .

فتقول لها أمى محذرة :

ـ إياك وأن تنظرى من النافذة .

وألاعب أنا القطة حتى تتوارى تحت الكنبة . أنظر إلى رأس ثور مثبت فى الجدار فوق سيفين متقاطعين متمنيا الوصول إليه . المضيفة تقدم لى قطعة هريسة فأتناولها . أمنى النفس بحضن دافئ آخر عند انتهاء الزيارة .

ويطول الحديث ويتشعب .

وتشعل المرأة المصباح الغازى المدلى من السقف .

تدور حول المصباح فراشة .

أتساءل متى تجيء لحظة الوداع الواعدة بالدفء ؟



نقف شبحين صامتين يكتنفنا الذنب والظلام

الحكاية رقم « ٦ »

على حصيرة واحدة نقعد صبيانا وبنات فى الكتاب . نتلو الآيات بصوت واحد ولا تفرق مقرعة سيدنا الشيخ بين قدم صبى وقدم بنت . وقت الغداء يتربع كل منا مستقبلا الجدار بوجهه ، يفك الصرة ويفرش منديله كاشفا عن الرغيف والجبن والحلاوة الطحينية .

تسترق عيناى النظر إلى درويشة وهى تقرأ أو تأكل .

فى الطريق أتبعها حتى تميل إلى الزقاق المسدود ثم أسير إلى بيتى حاملا لوحى وصورتها .

وفى موسم القرافة أضيق بالمكوث فى الحوش فأمرق إلى الخارج فنتلاقى — أنا ودرويشة — بين القبور المكشوفة بلا تدبير .

وأشطر فطيرتى فأعطيها النصف ، نأكل ونتبادل النظر .

— أين تلعبين ؟

— فى الزقاق .

هى تلعب فى الزقاق المتفرع من الحارة وأنا لا أجرؤ على التسلل إليه فى النهار . يمنعنى إحساس خفى ولكنه غير برىء . ونتواعد بالنظر وبلا كلام . ومع المساء أدخل الزقاق فأجدها واقفة على عتبة الباب .

نقف شبحين صامتين يكتنفنا الذنب والظلام .

— نجلس ؟

ولكنها لا تجيب .

أجلس على العتبة وأشدها من يدها فتجلس . أتزحزح حتى نتلاصق . يغمرنى شعور بسرور غريب ذى أسرار . أمد يدى إلى ذقنها فأدير وجهها إلى . أميل نحوها فأقبلها . أحيط خاصرتها بذراعى . أصمت وأهيم وأذوب فى دفقة إحساس مبهمة فأعرف السكر قبل الخمر .

وننسى الوقت والخوف .

وننسى الأهل والحارة .

حتى الأشباح لا تفرقنا .

الحكاية رقم « ٧ »

فى ليالى الصيف نسهر فوق السطح ، نفرش الحصيرة والشلت ، نستضىء بأنوار النجوم أو القمر ، تلعب من حولنا القطط ، يؤنسنا نقيق الدجاج . وتنضم إلينا فى بعض الأحيان أسرة جارنا الحاج بشير . وهى أسرة شامية مكونة من أم وثلاث بنات كبراهن فى العاشرة . يحلو لهن فى أوقات السرور أن يغنين معا أغنيات جبلية فأتابع الغناء بشغف يقارب شغفى بالبشرة البيضاء والأعين الملونة . أهيم بالأم وبناتها وألح فى طلب السماع ، ويستخفنى الطرب فأشارك فى الغناء وأحرز فى ذلك نجاحا وإعجابا حتى تقول جارتنا :

ـــ ما أحلى صوتك يا ولد !

وأجد فى مجتمع الليل فرصة للكشف عن موهبتى الصوتية كما يجد فيه قلبى الصغير نشوته فى حضرة البهاء الأنثوى . ويصبح الغناء هوايتى ، وسماع أسطوانات المهدية قرة عينى ، أما أغنيات الجبل فينشدها قلبى وحنجرتى معا .

وتقول جارتنا لأمى ذات يوم :

ـــ الولد له صوت جميل .

فتقول أمى بسرور :

ـــ حقا ؟

ـــ لا يجوز إهماله !

ـــ فليغن كيف شاء فهو أفضل من العفرتة .

ـــ ألا تودين أن يكون ابنك مطربا ؟

فتؤخذ أمى ولا تجيب فتواصل الجارة :

ـــ ما له سى أنور وسى عبد اللطيف ؟

ـــ إنى أحلم أن أراه يوما موظفا مثل أبيه وإخوته ..

ـــ المغنى يربح أكثر من مصلحة حكومية .

وأصغى باهتمام وأنا جالس على حجر الجارة مزهوا بالدفء والمجد .

* * *

ولا تدوم أيام السعادة والفن طويلا فذات يوم أرى أمى تهز رأسها بأسف وتتمتم :

ـــ يا للخسارة !

فأسألها عما يؤسفها فتقول :

ـــ جيراننا الطيبون راحلون إلى بر الشام .

ينقبض قلبي بالرغم من أنني لا أحيط بأبعاد الخسارة وأسأل :

ـــ أهو بعيد ؟

فتجيب بحزن :

ـــ أبعد مما نستطيع أن نبلغه .

أود من صميم قلبي أن أغير الواقع ، أن أرجع الزمن إلى أمس ، ولكن كيف ؟

وأودعهم للمرة الأخيرة وهم يستقلون الحانطور وأقبل يد الحاج بشير . وأتبع الحانطور نظري حتى يخفيه منعطف النحاسين . وأبكي طويلا وأعاني مذاق الفراق والكآبة والدنيا الخالية ..

الحكاية رقم « ٨ »

مواسم القرافة تعد من أسعد أيامي البهيجة .

نشرع في الاستعداد لها مع العشي بإعداد الفطير والتمر . وفي الصباح الباكر أمضي بين أبي وأمي حاملا الخوص والريحان ، تتقدمنا الخادمة بسلة الرحمة .

يسرني تدفق تيارات الخلق ، وطوابير الكارو ، وأعرف باب الحوش كصديق قديم . ويجذبني القبر بتركيبه الوقور المنعزل وشاهديه الشامخين ،

وسره المنطوى ، وبإجلال والدى له ، كما تجذبنى شجيرة الصبار . وتحت قبة السماء تنطلق مني وثبات فرح . ودفقات استطلاع لا يكدرها شيء ، ثم تتم المسرات بمراقبة المقرئ الضرير وجماعات الشحاذين المتكالبين على الرحمة .

وتتغير الصورة بدخول همام فى إطارها .

تجيء أختى وابنها للإقامة عندنا فترة من الزمن . همام فى الرابعة أو يزيد عنها قليلا ، أجد فيه رفيقا ذا حيوية وجاذبية ، يخرجنى بمؤانسته من وحدتى . جميل خفيف الروح ، يلاعبنى بلا ملل ويصدق أكاذيبى وأوهامى .

وأجده ذات يوم راقدا وصامتا ، أدعوه إلى اللعب ولكنه لا يستجيب ، وأخبر بأنه مريض ..

ويطبق على الجو اهتمام وحذر ، ويتفشى فيه ضيق وكدر ، وأتلقى أحاسيس مبهمة وغير سارة ، ويزيد من تعاستى قلق أمى وجزع أختى ثم حضور زوجها ..

وأسأل عما يحدث فأبعَد عن المكان ويقال لى :

ـــ لا شأن لك بهذا .. العب بعيدا ..

ولكنى أشعر بأن حدثا غير عادى يحدث ..

إنه خطير حتى إن أمى تبكى . وأختى تصرخ . وألمح من بعيد صديقى مغطى فوق الفراش مثل وسادة . لم يترك له متنفس . وأخيرا يتردد اسم الموت من قريب . وأفهم أنه فراق يطول فأبكى مع الباكين ، ويتألم قلبى أكثر مما يجوز لسنه .

لا تعود زيارة القبر من أيامى البهيجة ، ويتغير وقع منظره . أود أن أطلع على خفاياه ، وأتلقى الكآبة من صمته . ولا أتغلب على لوعة الفراق مع كر الأيام . إنه الحزن والحب الضائع والخوف والذكرى القاسية وإرهاق أسرار الغيب .

الحكاية رقم « ٩ »

خبر يتردد فى البيت والحارة .

تقول إحدى الجارات لأمى :

ـــ أما سمعت بالخبر العجيب ؟

فتسألها عنه باهتمام فتقول :

ـــ توحيدة بنت أم على بنت عم رجب !

ـــ ما لها كفى الله الشر ؟

ـــ توظفت فى الحكومة !

ـــ توظفت فى الحكومة ؟

ـــ إى والله .. موظفة .. تذهب إلى الوزارة وتجالس الرجال !

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنها من أسرة طيبة .. وأمها طيبة .. وأبوها رجل صحيح !

ـــ كلام .. أى رجل يرضى عن ذلك ؟

ـــ اللهم استرنا يارب فى الدنيا والآخرة ..

ــ يمكن لأن البنت غير جميلة ؟

ــ كانت ستجد ابن الحلال على أى حال ..

وأسمع الألسن تلوك سيرتها فى الحارة ، تعلق وتسخر وتنتقد ، وكلما لاح أبوها عم رجب أسمع من يقول :

ــ اللهم احفظنا ..

ــ يا خسارة الرجال !

توحيدة أول موظفة من حارتنا . ويقال إنها زاملت أختى الكبرى فى الكتاب . ويحفزنى ما سمعته عنها إلى التفرج عليها حين عودتها من العمل . أقف عند مدخل الحارة حتى أراها وهى تغادر سوارس ، أرنو إليها وهى تدنو سافرة الوجه مرهقة النظرة سريعة الخطوة بخلاف النساء والبنات فى حارتنا . وتلقى على نظرة خاطفة أو لا ترانى على الإطلاق ثم تمضى داخل الحارة . وأتمتم مرددا كالببغاء :

ــ يا خسارة الرجال !

الحكاية رقم « ١٠ »

أم عبده أشهر امرأة فى حارتنا .

فى قوة بغل وجرأة فتوة ، حتى زوجها سواق الكارو يتراجع أمام عنفها .

ولها بنتان جميلتان ، دولت وإحسان .

فى أى موقع من حارتنا تحظى بالتودد ، من التاجر والعامل والبائع والصعلوك ، كل أسرة لها عمل وأجر ، هى الوسيطة والشفيعة والخاطبة والدلالة والماشطة ، وعند الخصومة فهى القوة التى تبطش بالخصم .

وتزور أمى أحيانا فتحكى لها عن أحوالها . وقد يقتضى الأمر تمثيل ما وقع فى آخر مشاجرة شاركت فيها فيرتفع صوتها ويتهدج بالغضب والسب والقذف حتى يتوهم السامع أن التمثيل مشاجرة حقيقة ..

وهى تجاملنا فى المواسم فتجيئنا بالكارو لتمضى بنا إلى زيارة المغاورى وأبى السعود طبيب الجراح .

وأنا الرسول الذى يوفد إلى بيتها عند الحاجة . أذهب إليه بقلب طروب يتوق إلى رؤية الحمار المربوط إلى وتد فى الفناء ، ويتوق للقرب من دولت وإحسان .

دولت فتاة طيبة ، تفك الخط وتحفظ بعض سور القرآن . يحبها شاب متعلم من حارتنا فيتزوج منها متخطيا الفوارق ومجازفا بمصاهرة أم عبده .

إحسان صورة مصغرة من أمها فى أخلاقها ولكنها باهرة الجمال . مطبوعة على العنف والجرأة والبذاءة، تتحدى أمها نفسها فتنشب بينهما المعارك المثيرة. ويطلب يدها فتيان كادحون ولكنها ترفضهم تطلعا لفرصة فريدة كما حدث لأختها دولت. وإنى صديقها رغم فارق السن. غرائزى الكامنة ترسل إنذارات خفية تمتزج فى عينى بأشواق مبهمـة. يبهرنى حجمها المترامى وأعضاؤها الثرية المتراقصة. وتدعونى أحيانا لأساعدها وهى تغسل فى الفناء. أحمل إليها صفيحة الماء من عارضتها الخشبية وأمضى كالمترنح من ثقلها. أجلس قبالتها لأتسلم منها الملابس بعد عصرها لأكومها فى الطشت. فى أثناء ذلك تتلصص عيناى وهى ترامق تطلعاتى باسمة.

وتقول لى ذات مرة :

ــ خذ منديلى واذهب به إلى الشيخ لبيب .

وأذهب إلى الشيخ لبيب فى مجلسه قبيل القبو . يتربع على فروة بجلبابه المزركش وطاقيته البيضاء ، مكحول العينين مزجج الحاجبين . أعطيه المنديل ومليما وقطعة سكر ، فيشم المنديل ويتفكر مليا ثم يقول :

ــ عما قريب يمتلئ الكرار ويغنى العصفور ..

وأرجع إليها وأنا أردد ما سمعته لأحفظه ، ويسعدنى دائما أن أؤدى لها خدمة من الخدمات .

ويطلب يدها صاحب محل فراشة ، غنى فى الخمسين ذو زوجـة وأولاد ، فتتزوج منه . تعاشره عامين ثم تختفى من بيته ومن الحارة جميعا مخلفة وراءها ضجة وعارا وإصابة فى كبرياء أم عبده .

* * *

وفى ذات ليلة من ليالى الزمن الجارى الذى لا يتوقف أجدنى وجها لوجه مع إحسان . ترقص وتغنى :

عومـــى على الميـــه   يـا بت يـا شاميـه

وترانى فيشع من عينيها نور العرفان . أقف ذاهلا ولكنها تتلقانى ببساطة وبابتسامة مشجعة . تقبل نحوى فتأخذنى من يدى إلى حجرتها ثم تغلق الباب وتغرق فى الضحك . وتقول لى بعد أن جلسنا :

ـــ الدنيا واسعة ولكنها فى النهاية كالحق .

وأتفرس فى وجهها فتسألنى عن أمها قائلة :

ـــ كيف حال أم عبده ؟

ـــ عال .

ـــ ودولت أختى ؟

ـــ بكريها فى المدرسة .

ـــ ووالدتك وأخواتك ؟

ـــ بخير .

فتقول بمودة :

ـــ زرنى كثيرا .

وأسألها بعد تردد :

ـــ كيف جئت إلى هنا ؟

فتضحك وتقول ساخرة :

ـــ من نفس الطريق التى جئت منها أنت !

الحكاية رقم « ١١ »

نقف فى فناء المدرسة الابتدائية جماعات ننتظر نتيجة القبول . أنهينا مرحلة الكتَّاب ، وأدينا امتحان القبول ، وها نحن ننتظر إعلان النتيجة .

ويخرج ضابط المدرسة من حجرة الناظر ويمضى فى تلاوة الأسماء من كشف بيده ثم يقول :

ـــ ليبق منكم من سمع اسمه وليرجع الآخرون إلى بيوتهم .

لم أسمع اسمى . تشيع فى نفسى فرحة شاملة . أعتقد أن سقوطى هو نهاية علاقتى بالتعليم وعصى المدرسين ، وأننى سأستقبل من الآن فصاعدا حياة ناعمة خالية من الكدر .

ويسألنى أبى عن النتيجة فأجيبه بارتياح :

ـــ سقطت ورجعت إلى البيت .

ـــ اخص .. تصورتك أفضل مما أنت ..

فأقول بسرور :

ـــ لا يهم !

ـــ لا يهم ؟

ـــ إنى أكره الكتاب وأكره سيدنا الشيخ وأكره الدروس .. فالحمد لله على أننى تخلصت من ذلك كله ..

فيقطب أبى متسائلا :

ـــ أتظن أنك ستمكث فى البيت ؟

ـــ نعم ، هذا أفضل .

ـــ لتلعب مع الأوباش فى الحارة ، أليس كذلك ؟

فنظرت إليه بقلق فقال بحزم :

ـــ سترجع إلى الكتاب عاما آخر ، والفلقة كفيلة بمعالجة غبائك ..

وأهم بالاحتجاج فيقول :

ـــ استعد لعمر طويل من التعلم ، ستتعلم مرحلة بعد مرحلة حتى تصير رجلا محترما ..

ولم أنعم بفرحة السقوط إلا ساعات !

الحكاية رقم « ١٢ »

ماذا يحدث للدنيا ؟

يجتاحها طوفان ، يقلقلها زلزال ، تشتعل بأطرافها النيران ، تتفجر بحناجرها الهتافات ..

الميدان يكتظ بالآلاف ، لم يقع ذلك من قبل ، هديرهم يرج جدران حارتنا ويصم الآذان ، إنهم يصرخون ، وبقبضات أيديهم يهددون ، وحتى النساء يركبن طوابير الكارو ويشاركن فى الجنون ..

وأحملق فيما يجرى من فوق سور السطح وأتساءل عما يحدث للدنيا ..

وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان ، وينهمر سيل من

الألفاظ الجديدة السحرية ، سعد زغلول ، مالطة ، السلطان ، الهلال والصليب ، الوطن ، الموت الزؤام ..

الأعلام ترفرف فوق الدكاكين ، صور سعد زغلول تلصق بالجدران ، إمام المسجد يظهر فى شرفة المئذنة ويهتف ويخطب .

وأقول لنفسى إن ما حدث غريب ولكنه مثير ومسل شديد البهجة .

غير أننى أشهد مطاردة .

يندفع أناس داخل حارتنا ، يرمون بالطوب ، يتحصنون بالأركان .

يقتحم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم الغليظة . تنطلق أصوات حادة مخيفة تعقبها صرخات ، أُنزع من مكان المراقبة إلى الداخل فتطالعنى وجوه مذعورة وهمسات تقول :

— إنه الموت .

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة ، لا شىء إلا أصوات متضاربة ، وقع أقدام ، صهيل خيل ، أزيز رصاص ، صرخة موجعة ، هتاف غاضب .

يتواصل ذلك دقائق فى الحارة ثم يسود الصمت .

ويتردد الهدير ولكن — هذه المرة — من بعيد .. ثم يسود صمت مطلق .

وأقول لنفسى إن ما يحدث غريب ومزعج ومخيف .

وأعرف بعض الشىء معانى الألفاظ الجديدة ، سعد زغلول ، مالطة ، السلطان ، الوطن ، وأعرف بوضوح أكثر الفرسان البريطانيين والرصاص والموت .

تزورنا أم عبده فى غاية من الانفعال ، تحكى حكايات عن الضحايا والأبطال ، وتنعى إلينا علوة صبى الفران ، وتؤكد أن جياد الفرسان حرنت أمام سور التكية وألقت الفرسان عن متنها ..

وأقول لنفسى إن ما يحدث حلم مثير لا يصدق.

الحكاية رقم « ١٣ »

مهذب ذكى العينين قصير القامة فى مطلع الشباب ، قيل لى :

ـــ ابن عمك صبرى .

أعرف أباه ـــ عمى ـــ معرفة سطحية فهو لا يبرح الريف إلا نادرا ، أما صبرى فإنه يرى القاهرة لأول مرة . وأعرف أيضا من أحاديث الليل أن عمى أرسله إلى القاهرة ليلتحق بإحدى مدارسها الثانوية بعد أن ترامت أنباء نشاطه الثورى فى موطنه إلى مراكز الأمن .

أسأله وأنا أرمقه بشغف :

ـــ أنت من شبان المظاهرات ويحيا سعد ؟

فيبتسم ولا يجيب .. إنه يبدو أعمق من سنه .

ويقول له أبى :

ـــ هذا بيتك ، وأنت الآن آمن ، ولكن كن على حذر .

وأقول لأبى :

ـــ ولكنك يا بابا أضربت مع الموظفين ؟

— فينهرنى :

— لا تتدخل فيما لا يعنيك .

ويمارس صبرى حياة تلميذ مجتهد ذى طاقة كبيرة فى العمل .

غير أن القلق يلوح فى عينيه الذكيتين ذات مساء فأسأله عما يقلقه فيسأل بحذر :

— ماذا دعاك إلى السؤال ؟

— لست كعادتك .

فيدعونى إلى المشى فى الحارة . نتسكع فى الحارة وفى ميدان بيت القاضى حتى يهبط الليل . ويهمس فى أذنى :

— تستطيع ولا شك أن تحمل ورقة إلى هذا أو ذاك من الناس ؟

— ولكن لماذا أفعل ذلك ؟

— لا تفعله إذا كان يضايقك .

وأوافق ليعهد إلى بمهمة أيا تكن .

وأمضى لأوزع أوراقا على أصحاب الحوانيت والمارة. يتناولونها بدهشة، يلقون عليها نظرة سريعة، يبتسمون ثم يواصلون العمل أو المشى.

وأرجع إليه عند رأس الحارة فيسألنى :

— مبسوط ؟

أعرب له عن سرورى الذى لا حد له فيقول محذرا :

— إياك أن تخبرعمى أو امرأة عمى .

ولا أعلم أننى كنت أوزع منشورات سياسية إلا بعد مرور فترة غير قصيرة .

الحكاية رقم « ١٤ »

يبدأ هذا اليوم بمظاهرة هزلية . من عجب أنهم يهزلون فى الفترات القصيرة التى تفصل بين المصادمات الدامية . ها هى مظاهرة ضخمة تسوق فى مقدمتها حمارا مدثرا بقماش أبيض نقش عليه بالأحمر :

« السلطان فؤاد »

ابن بلد يمتطى الحمار واضعا على رأسه قبعة بريطانية ، والمديـر يصطخب :

يـا فـؤاد يـا وش القملـة   من قالك تعمل دى العملـة

وتستقبل كالعادة بالهتاف والزغاريد .

وأحمل لأبى خبرا من الحارة أثار خيالى فأقول له :

ـــ يقولون إن اسم سعد يرى منقوشا على البيض بعد خروجه من الدجاج .

فيضحك أبى ، ويضحك ضيف يجالسه . ويقول الضيف عن سعد :

ـــ كان أعداؤه يتجنبون النظر فى عينيه وهم يجادلونه تفاديا للشعاع الحاد الذى ينطلق منهما .

ويطرب أبى للكلام ويتمتم :

ـــ إنه هدية السماء إلينا .

فيقول الضيف متحمسا :

— انتهت سنون النحس وبدأت أيام السعد .

ويتنهد أبى قائلا :

— يا أسفى على الرجل الشيخ المريض فى منفاه .

فأذهل وأسأل :

— سعد مريض ، كيف هذا يا بابا ؟

ولا يعيرنى التفاتا فأصر قائلا :

— سعد لا يمكن أن يمرض .

ثم بيقين أشد :

— لم يبق إلا أن تقول إنه سيموت مثل همام ابن أختى .

الحكاية رقم « ١٥ »

ويزور أبى جماعة من الأصدقاء فيدور الحديث عن الثورة . لا حديث هذه الأيام إلا عن الثورة . حتى حديثنا نحن الغلمان يرطن بلغة الثورة ، ولعبنا فى الحارة مظاهرات وهتافات . وتصبح دوريات الإنجليز منظرا مألوفا لدينا ، نمعن فى الجنود النظر بذهول ونقارن بين ما نسمع عن وحشيتهم وما نرى من جمال وجوههم وأناقتهم ونتعجب .

يدور الحديث بين الزوار عن الثورة .

— من يصدق هذا كله أو بعضه ؟!

— إنه الله الرحمن الرحيم .



سعد مريض ! كيف هذا يا بابا ؟

(حكايات حارتنا)

— يخلق الحى من الميت .

— الفلاحون والعمال والطلبة والموظفون والنساء يقتلون ويقتلون .

— الفلاح يحمل السلاح ويتحدى الإمبراطورية .

— انقطعت المواصلات تماما ، أصبحت مصر دويلات مستقلة !

— والمذابح ؟

— مذبحة الأزهر .

— مذبحة أسيوط .

— العزيزية والبدرشين .

— الحسينية .

— لا أنا ولا أنت ، ليحيى سعد !

— إى والله ليحيى الساحر العظيم .

— ولكن الأموات يفوقون الحصر .

— أحياء عند ربهم .

وينبرى رجل ليقص سيرة سعد كما يعرفها ، ومواقفه مع الإنجليز والخديو قبل الثورة .

وألمح أبى تغرورق عيناه بالدموع .

أراقبه بذهول محتقنا بانفعال صامت وفيض من الدموع ينهمر على خدى .

الحكاية رقم « ١٦ »

سلومة أول شهيد من أبناء حارتنا . حقيقة أن علوة صبى الفران أول من قتل فى حارتنا ولكنه فى الأصل من أبناء كفر الزغارى . وعم طلبة — أبو سلومة — بياع يسرح بعربة غزل البنات ، وكان سلومة يعاونه ، وينام على مقدم العربة إذا أنهكه التعب .

وتخترق مظاهرة ميدان بيت القاضى فينضم إليها سلومة بتلقائية دون أن ينتبه إليه أبوه . وتنقض على المظاهرة قوة إنجليزية فى خان جعفر وتطلق عليها النار . يصاب سلومة برصاصة فى رأسه ويسقط قتيلا .

وينتشر الخبر فى الحارة فيجتاحها حزن ، ويهزها الفخار والإكبار . ويقبل الناس على طلبة يعزونه وينثرون بين يديه لآلئ الكلمات . ورغم حزن الرجل وتهالكه فإنه يمارس إحساسا جديدا لم يعرفه من قبل ، يرى نفسه لأول مرة محوطة بأهل الحارة من كافة الطبقات ، يفوز بإكبار من لم يبالوا من قبل برد تحياته ، وتنهال عليه نفحات الموسرين من التجار والمعلمين .

وتكون جنازة سلومة أعظم جنازة تشهدها حارتنا ، تصغر إلى جانبها أى جنازة سابقة من جنازات الفتوات والأعيان ورجال الدين . سعى وراء النعش المكلل بالعلم جميع الذكور ، وحياه النساء من النوافذ والأسطح ، وانضم إلى المشيعين مئات من الحوارى المجاورة ، فبلغت

الحسين فى ضخامة مظاهرة وجلالها .

وتصير الجنازة حديث الناس ، ويمسى سلومة اسما ورمزا ، ويحظى الأب الكادح المصاب بمكانة مرموقة ، وينوه المعلقون بعجائب الحياة المغيرة للقيم فى لحظة من اللحظات الساحرة .

الحكاية رقم « ١٧ »

استيقظت ذات صباح فأجد فى بيتنا امرأة وفتاة .

وتقول أمى :

ــ تعال سلم على عمتك وبنت عمتك سعاد .

أسلم بحياء من يراهما لأول مرة . المرأة تشبه أبى حقا ، الفتاة غاية فى الجمال .

وتسألنى عمتى :

ــ فى أى سنة دراسية يا حبيبى ؟

ــ الثانية الابتدائية .

وأفتن بالفتاة فتملؤنى بسحر لطيف وأحلام عذبة .

وأعرف أن عمتى جاءت مع ابنتها من المنيا لتجهزها وأن زفافها وشيك . وتشغل أيامهما المعدودة بالقاهرة بالتردد مع أبى على محال الأثاث والنجارين والمنجدين .

وفى أوقات الراحة تتبدى سعاد فى ثوب أنيق وزينة جذابة ، تتألق

بألوان العرائس وتعبق بشذاهن .

وأختلس منها النظرات بقلب حنان وشوق غامض .

وتقول لى وهى تنظر إلى الحارة من خصاص النافذة :

ـــ حارتكم مسلية جدا .

ـــ تعالى أفرجك على أزقتها والقبو والتكية .

تتجاهل دعوتى . تتسلل نظراتى إلى عنقها وأسفل ساقيها ، أتوق إلى تلاق غامض وإشباع مبهم ومغامرة مجهولة ، أريد أن ألمس خدها المتورد ، لا أريد أن أصدق أنها سترحل بعد أيام ، وأن قلبى لن يجد من يؤنسه .

وأستجمع شجاعتى وأقول :

ـــ أتعرفين .

وينقطع الصوت والتفكير فتتساءل هى بنبرة محرضة على مواصلة الحديث :

ـــ أتعرفين ؟

ألوذ بالصمت فتسألنى :

ـــ لماذا تنظر إلى هكذا ؟

ـــ أنا !؟

ـــ نعم ، رأيتك ، لا تنكر .

وتضحك ضحكة قصيرة ثم تقول :

ـــ أنت ولد شقى .

وينقبض قلبى من الشعور بالذنب .

* * *

وأرى أمي وعمتي ذات يوم وهما يتناوبان النظر فى صورة فوتوغرافية لسعاد . وتقول عمتى :

— أصر العريس على رؤية الصورة .

— وأبوها وافق ؟

— يعنى .

ويترامى إلينا صوت أبى من حجرته :

— تصرف غير لائق !

فتقول أمى :

— الزمان غير الزمان !

وتقول عمتى :

— ما هى إلا صورة ، والعريس لقطة وابن ناس .

فيقول أبى بنبرة لا تخلو من احتجاج :

— على خيرة الله .

أتابع الحديث بحزن خفى . تطالعنى من ثناياه نذر الفراق الأبدى ووجه الكآبة فى الأفق .

وتمر أيام الزيارة بسرعة فائقة وأنا عاجز عن إيقافها .

وتجىء لحظة الوداع .

وأرنو إلى خد سعاد المورد كرغيف خارج لتوه من الفرن .

وتذهب الأسرة كما ذهب آل بشير من قبل .

وتضحك أمى من لوعتى دون أن تفطن إلى عمق أشجانى .

الحكاية رقم « ١٨ »

الفرحة ترقص فى القلوب ، والنشوة تشتعل فى النفوس ، يوم عودة سعد .

أبى يرجع من الخارج كأنما هو راجع من خناقة ، زر طربوشه مفقود ، عقدة رباط عنقه غائصة فى ثنية الياقة . جاكتته تنضح بالعرق والتراب ، صوته مبحوح كأنه سعل دهرا ، ولكن عينيه تتألقان بنور ظافر . يستلقى على الكنبة ويقول :

ـــ هتفت حتى ضاع صوتى ، نسيت نفسى تماما .

ثم بارتياح عميق :

ـــ تجمعت الدنيا كلها فى ميدان السيدة ، سبحانك يا ربى ما أكثر عبادك !

ويجتاح الحارة إحساس غامر بالنصر ، ويعتقد كل قلب أن الحرية تدق الأبواب . وتطبق المظاهرات على حينا لا تريد أن تنتهى . سعد .. سعد .. يحيا سعد . وتلهب حرارة الهتافات خيالى ، وآسف على أن المظاهرات لا تدخل حارتنا شبه المسدودة التى لا مخرج لها من طرفها الآخر إلا الممر الضيق المحاذى للتكية والمفضى إلى القرافة .

وأسأل أمى :

ـــ سيرحل الإنجليز ؟

فتجيبنى بيقين :

— إلى غير رجعة .

وفى الليل تحتفل حارتنا بعودة الزعيم احتفالا خاصا . تضاء الكلوبات فى هامات الدكاكين ، ترتفع الأعلام ، تدوى الزغاريد وتتطوع العالمة الماظية بإحياء الليلة . تقيم سدتها فى الوسط أمام الوكالة يحف بها تختها ، ترص الكراسى أمامها ، وعلى أنغام العود والقانون والناى والرق يرقص الرجال ، وتغنى هى :

ليالى الأنس عادت بالليالى

وتغنى أيضا :

يا بلح « زغلول » يا حليوه يا بلح

وتختم بأغنية ضاحكة مطلعها :

ياواد يا أللنبى كان جرى لك إيه يابن المره

جه الاستقلال غصبا عنك وعن انجلتره

وتكتظ البوظة بالسكارى وتشتعل الغرز بنيران المجامر ، وحتى المجاذيب والمتشردون واللصوص يسهرون ويفرحون . ويشارك عم طلبة أبو الشهيد فى الحفل ، والشيخ لبيب يحضره .

وأسهر أنا فى النافذة ، وقوى مجهولة تشحن قلبى الصغير بحيوية سحرية .

الحكاية رقم « ١٩ »

أبى ينظر إلىّ نظرة غامضة ويسألنى :

ـــ ماذا فعلت ؟

فأجيبه بسرور وزهو :

ـــ اشتركت فى المظاهرة الكبرى .

ـــ كان يمكن أن تدوسك الأقدام .

ـــ كان الصغار كثيرين .

ويدارى أبى ابتسامة ويسألنى بنبرة ممتحن :

ـــ الآن سعد زغلول هو رئيس الوزراء فلم تضربون ؟

ـــ أضربنا لتأييده فى موقفه ضد الملك .

ـــ من قال لك ذلك ؟

ـــ رئيس الطلبة ، قال إن سعد زغلول قدم استقالته احتجاجا على موقف الملك من الدستور ، وأننا ذاهبون لتأييد الزعيم .

ـــ هل عرفت وجه الخلاف بين سعد والملك ؟

وأتوقف عن الاسترسال مرتبكا فيضحك أبى ولكننى أبادره :

ـــ نحن مع سعد وضد الملك !

ـــ عظيم ، وماذا كان هتافكم فى عابدين ؟

ـــ سعد أو الثورة .

— ما معنى ذلك ؟

وأتفكر قليلا ثم أقول :

— معناه واضح ، سعد أو الثورة ..

وهو يبتسم :

— عظيم ، ومن الذى انتصر ؟

— سعد ، وهتفنا : عاش الملك ويحيا سعد .

ثم أقول بحماس :

— الاشتراك فى المظاهرة أمتع من أى شىء فى الدنيا .

فيبتسم أبى ويقول :

— بشرط ألا يشترك فيها الإنجليز !

الحكاية رقم « ٢٠ »

يحيى مدكور أمهر لاعب كرة فى مدرستنا ، وصديقى المفضل فى المدرسة الابتدائية .

أجده يوما يقرأ كتابا فى الفسحة فأسأله :

— ما هذا ؟

— ابن جونسون .. الحلقة الأولى من مسلسلة بوليسية جديدة ..

ويعيرنى الكتاب بعد فراغه فأقرأه بسعادة لم أجد مثلها من قبل . وأواظب على قراءة السلسلة ، ثم أنتقل من سلسلة إلى أخرى ، ومن كتاب

إلى آخر ، ثم أدمن القراءة .

وأصير مع الزمن بطلا من أبطال القراءة ، أما صديقى فهجرها سريعا ثم يتربع على عرش الكرة .

الحكاية رقم « ٢١ »

إبراهيم توفيق مقترن فى ذاكرتى بالتهريج والتحدى ، خفيف الروح نصف مجنون . بطل هواة لعب الكرة « الزلط » فى فناء المدرسة . ننتقى عادة من كوم التراب وراء السبيل زلطة فى حجم الجوزة لتقوم مقام الكرة ، نخوض بها مباراة يومية فى فسحة بعد الغداء . والمباراة « الزلطية » ممنوعة رسميا ولكن يغضى عنها عادة ، وتمارس بعنف فى أثناء تناول الضباط طعامهم ، ويكف عنها فورا عند مرور الناظر ، أما عواقبها الوخيمة على الأحذية فيدفع ثمنها الآباء .

وفى الفسحة القصيرة يضغط إبراهيم توفيق طربوشه حتى يصير مثل طاقية ، ويرتدى جاكتته بالمقلوب ، ويحاكى مشية شارلى شابلن ذهابا وإيابا على إيقاع تصفيقنا ، ثم يختم لعبه بإنشاد مونولوج :

يا عديم الخال يا قليل المال

رفعتك محال فى زمن الأندال

ويوما يتباهى بالمقالب التى يدبرها لزوج أمه فيقول له احدنا :

ـــ أتحداك أن تأكل قرن فلفل حامى !

والتحدى يستفزه لمصارعة المحال فيهتف :

ــ آكل عشرة !

ويتراهن فريقان . نبتاع من بياع الفول عشرة قرون فلفل حامية ، وتحلقناه فى حماس ..

يتناول إبراهيم القرن الأول ويأكله مبديا ثباتا واستهانة ..

ويتناول الثانى محافظا على ثباته واستهانته ..

ويتناول الثالث فلا يتغير من مظهره شيء إلا أنه ازدرد ريقه بصورة ملموسة .

ويتناول الرابع فيسعل سعلة مكتومة .

ويتناول الخامس فتدمع عيناه رغم قوة إرادته ويسعل بشيء من العنف .

وعقب تناول السادس يبدو كأنه يقاوم عدوا مجهولا اندس فى أعماقه ، وتفيض عيناه بالدمع ..

وهو يأكل السابع يسيل الماء من أنفه ويصطبغ أنفه بحمرة عميقة ..

ويصيح بعض ضعاف القلوب :

ــ أوقفوا الرهان ..

ولكنه يرفض بحركة من رأسه دون أن ينبس وكأنما لا يستطيع النطق .

ويلتقى ماء عينيه بماء أنفه فى مجرى على ذقنه وعنقه وينتابه سعال متقطع .

ويستحيل وجهه قرمزيا وتنتفخ شفتاه ولكنه يلتهم القرون حتى آخرها وسط التهليل والتصفيق ، ويربح ..

ولكنه لعله لا يشعر للنصر بلذة ، إنه صامت محتقن زائغ البصر، وعلى

هذه الحال ندخل حصة الدين . والشيخ يطارده بالتسميع لما هو معروف عنه من الإهمال والشقاوة ، يقول له :

ـــ إبراهيم توفيق ، سمع ﴿ تبارك الذى ﴾ .

ويلبث إبراهيم صامتا مغمورا بهمومه الخفية فيصيح به الشيخ :

ـــ قف يا ولد وسمع ..

ولكن إبراهيم لا يتحرك على حين تصدر من الأركان همهمة يظنها الشيخ لعبة متفقا عليها فيصيح :

ـــ الأدب يا أولاد الكلاب ، قم يا مجرم .. قم لا بارك الله فيك ولا فيمن أنجبك ..

ويقترب الشيخ منه فى مجلسه فى آخر الحجرة فيهوله منظر وجهه فيتوقف متسائلا :

ـــ ماذا بك ؟.. لماذا تبكى ؟

عند ذاك يتكلم عنه كثيرون فيسمع الشيخ ويتعجب ويقول :

ـــ أعوذ بالله .. يا أولاد الأبالسة .. كلكم مجرم وابن مجرم .

ويذهب بإبراهيم إلى الخارج ليسعف فى حجرة الطبيب .. ولكن إبراهيم لا يكف أبدا عن التهريج والتحدى ..

الحكاية رقم « ٢٢ »

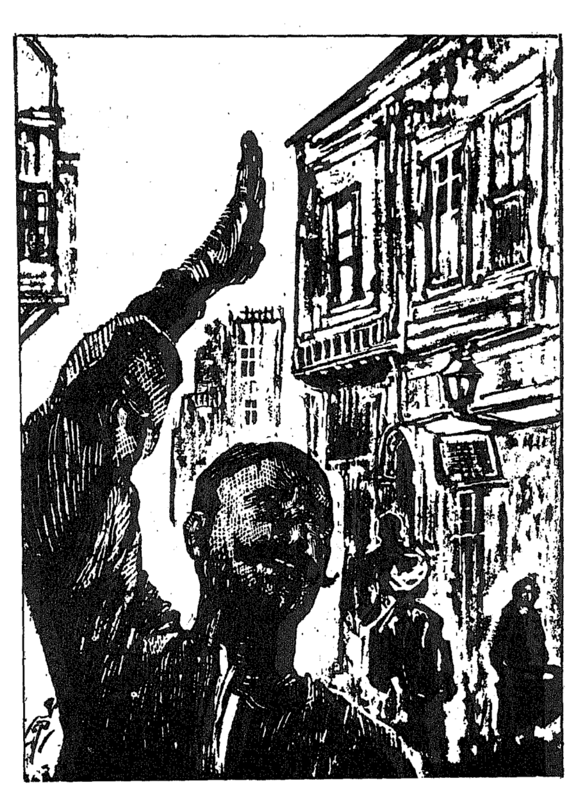
هاشم زايد يجلس إلى جانبى على قمطر واحد .

طويل القامة مفتول العضلات ولكنه وديع خجول وطيب وحسن السلوك . أمه أرملة غنية تملك بيوت زقاق برمته وشريكة أكبر عطار فى الحارة ، لذلك نخصه بنظرة تجمع بين الإعجاب والحسد . تتهادى إليه نكات إبراهيم توفيق من وراء فلا يملك إلا أن يضحك فيراه المدرس دون الفاعل الحقيقى فينال جزاءه صفعة أو لكمة أو ركلة باستسلام التلميذ المؤدب .

ويفشل هاشم فى المدرسة فيتركها ، وتموت أمه فيصير من أكبر أعيان الحارة فى لحظة واحدة . وتفرق بيننا السبل . أراه أحيانا مستقلا الكارتة أو جالسا فى ملابسه البلدية وسط هالة من المريدين . إنه يتحول إلى شخصية غريبة فأتجنب حتى مصافحته . إنه يتكبر ويتعالى ويستثمر قوته فى العدوان وفرض إرادته على العباد . كيف يتحول الصبى الخجول الطيب إلى وحش شرس ؟. إنى أتفكر وأتخيل دون جدوى ..

لا يمر يوم فى حياته بلا معركة ، اللكمة عنده أسرع من الكلمة ، والنبوت مفضل على اللكمة ، ويحل بالمكان فيتجنبه الناس كأنه وباء ..

لو امتد زمن الفتوات إلى زمانه لفرض نفسه فتوة ، وهو يزعج القسم كما يزعج الحارة ، ويبيت أياما بسجن النقطة ولكنه يرشو المخبرين وشيخ



ولكنه يصب غضبه على جميع من شهد دموعه

الحارة .

تحف به دائما بطانة ولكن لا صديق له ، ولم يتزوج رغم ثرائه ولا يعرف عنه أى ولع بالنساء . وعلاقته بذكرى أمه مثيرة محيرة ، يتذكرها أحيانا بحزن عميق ويتنزل على روحها الرحمات ، وأحيانا ينتقدها بمرارة وسخرية ، يقول :

ـــ كانت بخيلة شحيحة ، تهمل نفسها لحد القذارة ، وتعامل الخدم بقسوة جنونية ..

ويغالى مرة فى الحملة عليها ثم ـــ فجأة ـــ يجهش فى البكاء ، ينسى نفسه تماما ويجهش فى البكاء ، ثم ينتبه لضعفه فيضحك ، ولكنه يصب غضبه على جميع من يشهد دموعه ، ويبدو أنه يضمر لهم أو أنه سيضمر لهم السوء ..

ويختفى هاشم زايد من الحارة ومن البيت .

وتطول غيبته حتى يذوب رويدا رويدا فى ظلمة النسيان .

وتسمع من يقول إنه هاجر ، وتسمع من يهمس بأنه قتل وأخفيت جثته ..

الحكاية رقم « ٢٣ »

ذات صباح تدهمنى اليقظة بعنف . أستيقظ مجذوبا من عالم الغيب بقبضة مبهمة . يلفنى تيار من الطنين . أنصت فيقف شعر رأسى من ترقب الشر . أصوات بكاء تتسلل إلى من الصالة . تغرز أفكار السوء أسنانها فى لحمى ، ويتخايل لعينى شبح الموت ..

أثب من الفراش مندفعا نحو الباب المغلق . أتردد لحظة ثم أفتحه بشدة لأواجه المجهول .

أرى أبى جالسا ، أمى مستندة إلى الكونصول ، الخادمة واقفة عند الباب ، الجميع يبكون ..

وترانى أمى فتقبل على وهى تقول :

ــ أفزعناك .. لا تنزعج يا بنى ..

أتساءل بريق جاف :

ــ ماذا ؟..

فتهمس فى أذنى بنبرة مختنقة :

ــ سعد زغلول .. البقية فى حياتك !

فأهتف من أعماق :

ــ سعد !

وأتراجع إلى حجرتى .
وتتجسد الكآبة فى كل منظر .

الحكاية رقم « ٢٤ »

القطة الأم مستلقية على جنبها مترعة الحلمات والصغار تتلاطم مغمضات الأعين فى حضنها . أنا وحيد فى الحجرة أتابع المنظر باهتمام . فجأة تتردد أنفاس على كثب منى فألتفت فأرى سنية . هى بكرية جارنا ساعى البريد ، دقيقة القسمات خفيفة الروح ، مليئة بالحيوية والمرح ، تكبرنى ببضعة أعوام . تنظر إلى القطة بشغف وتهمس :

ـــ ما أجملها !

أوافق بإيماءة من رأسى فتقول :

ـــ أحب القطط ، وأنت ؟

أجيب وشعورى بتوحدنا يغمرنى :

ـــ وأنا ..

وتقترب لترى بوضوح أكثر فأحس مس صدرها لكتفى تـواصل الحديث فلا أتابعها . إنى أضطرم فيلتهم اللهيب حيائى ، أستدير فأضمها إلى صدرى ، وتبدأ علاقة وطيدة ، مفعمة من ناحيتى بالسرور والندم .

أزداد بها معرفة ، جميلة جسورة بقدر ما هى حريصة . رغم سكراتها المنغومة فبيننا حدود لا يمكن تخطيها . ألبى إشاراتها ، أهرع إلى ظلها ، أما

هى فلا تعرف النجوى ولا الحلم ولا البراءة ، تجذبنى إلى حديقة الورد ثم تضرم فيها نيران الجحيم . لا نعرف السكينة ولا الأمان ، نقطف الثمار فى رعدة من الرقباء ، نجرى فى حومة الحب خطافين نشالين مجانين ، نراوح بين الصراع المكتوب والنعاس المفتوح العينين ، وتنقلب الحياة أغنية مجنونة تتفجر بالعذوبة والعذاب .

وتتزوج سنية عقب عامين من حبنا .

ونلتقى بعد أعوام وأعوام من زواجها .

أجدها مفرطة فى البدانة ، غافية النظرة ، رزينة ، جليلة ، راسخة الاستقرار والوقار . نتافح ونتبادل حديثا روتينيا عن الأحوال والناس . لا بسمة ذات معنى ولا إشارة إلى عهد انقضى . سيدة مصونة ورمز حى للأمومة ، ومثال للتدين والورع .

وأتخطى الحاضر راجعا إلى عهد صباها النضير ، وهى فراشة متعددة الألوان ، تفاحة طازجة ، وردة فواحة ، ينبوع متدفق .

تلك الأيام السعيدة .

الحكاية رقم « ٢٥ »

فتحية ، الأخت الصغرى لسنية ، تماثلنى فى العمر .

مثال للهدوء العذب والرصانة والعمق .

نظراتنا تتسلل فى استحياء فيستحوذ على أمل خلاب . أمد يدى فأقبض على راحتها فتسحبها بلطف ، وبرقة تقول لى :

— لا أحب العبث .

وأضيق بجديتها فأقول :

— إنك لا تعرفين الحب .

فتقول بأسى :

— أنت الذى لا تعرفه .

وتقول معاتبة :

— أثبت لى أنك تعرفه مثلما أعرفه .

ليست قطرات الندى مثل ذوب الشمع المحترق ، ويصرفنى اليأس فأتعزى بالزهد ، أمضى مصمما على النسيان ، ولكن ترجعنى الأشواق أو رسالة عتاب أو لقاء غير متوقع فأجد نفسى مرة أخرى حيال قلب محب وعاطفة طاهرة وإرادة لا تلين .

وطريقى شاقة وطويلة ، وفتاتى محبوبة كثيرة الخطاب . يقول لها أبوها :

ــ معنى الرفض أن تنتظرى عشرة أعوام .

ثم يقول بحزم :

ــ القلوب تتغير بعد عشرة أعوام .

ويصر على تزويجها من رجل مناسب فتزف إليه كسيرة القلب . وتنجب أطفالا ، وترعى بيتا يعد مثالا للحياة الزوجية الموفقة .

وتغيب عن عينى وخيالى دهرا طويلا .

وألتقى بها فى مأتم وهى فى الستين من عمرها ، أرملة منذ عشرة أعوام ، فنتصافح وتطالعنى بنظرة صافية تتألق فيها بسمة ذكريات قديمة . يتحرك فى أعماق شيء غامض . تجتاحنى موجة من التذكر والأسى ، وشعور فادح بطول الزمن المطروح ورائى .

وأعلم بأنها تعيش وحيدة بعد زواج بناتها مع خادم عجوز . وأجدنى أحادثها رغم كل شيء بجرأة مستمدة من ضآلة ما يتبقى من العمر ، وأعزم على زيارتها . وأتخيل وأسباب الابتسامة والمرارة تتجاذبنى ، ثم أبتهل فى خشوع إلى أشجان الوداع .

الحكاية رقم « ٢٦ »

ست نجية امرأة وحيدة .

عهدى بها وحيدة دائما ، فى بيتها وحيدة ، مقطوعة من شجرة ، يرد اسمها بلا لقب ، لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت ، ولكنها معروفة بأنها امرأة غنية .

صورتها لا تنسى ، قصيرة جدا ، مطبوعة بطابع كساح يتجلى فى تقوس ساقيها وبروز ذقنها ، ولها أنف كبير مثل أذن حمار ، دميمة ولكنها غير منفرة لخفة روحها وسخريتها اللاذعة من نفسها ومن الناس .

تجىء معها فى زيارتها لنا بالمرح والضحك ، فلا نهاية لنوادرها وقفشاتها ، وأتصورها دائما أسعد الناس .

بيتها مزرعة قطط وكلاب ، تولد وتنشأ فى عزها مكرمة مدللة ، لكل اسمه وخدماته الغذائية والصحية والرياضية . هى مولعة بهن وهن مولعات بها ، وفى رحابها المترعة بالرحمة والسخاء تنمحى الخصومة الغريزية بين الكلاب والقطط فهن يعشن فى اخاء ومودة .

تسألها أمى :

— لم نرك من مدة يا ست نجية ؟

فتقول :

— كانت نرجس متوعكة المزاج .

أو تقول :

ـــ كانت بركة تلد .

ودائما تتحدث عن عفريت من الجن يؤاخيها ، وتحكى عن علاقتهما الخاصة باعتزاز وتنوه بنوادره .

تقول بجدية :

ـــ أمس شعرت بأنفاسه تتردد على وجهى قبيل الفجر .. أو تقول :

ـــ وجدت بلاص العسل فارغا فقلت له بالهنا والشفا ..

بالصدق والجدية تتكلم ، لعلها لا تتخلى عن المزاح إلا حين الحديث عن أخيها الخفى ..

وتزعم أيضا أن الكلاب والقطط تخاطبها بلغاتها الخاصة وأنها تفهمها ، ولكى تثبت صحة كلامها تمضى فى محاكاة اللهجات القطية والكلبية فنغرق فى الضحك .

ولها خبرة راسخة فى قراءة الفنجان والورق وتفسير الأحلام ، وتتهم أحيانا بممارسة السحر والشبشبة حتى إن أم عبده لعنتها جهرا فى الحارة عقب اختفاء ابنتها إحسان ، ولكن طيبتها خصلة يشهد لها بها أكثر الناس ..

لا يكاد يطرق بابها أحد ، لكثرة الكلاب يتجنب الناس زيارتها ، حتى الخدم لا يطيقون خدمتها ، فهى وحيدة فى بيتها ولكن تؤنس وحدتها الكلاب والقطط والعفريت المؤاخى ..

تقول لها أمى وهى بصدد الحديث عن وحدتها :

ـــ على الإنسان أن يعمل حسابه لساعة الأجل .

فتجيبها جادة وهى تبتسم :

ـــ ستنبح الكلاب حول جثتى وتموء القطط ، ويحضر أخى لبغمض عينى ، ثم يفعل الله ما يشاء .

الحكاية رقم « ٢٧ »

تقول ضيفة لأمى :

ـــ نظلة ، الله يسامحها .

فتسأل أمى عن الأخبار فتقول الضيفة :

ـــ ما زالت بالجدع حتى أوقعته فتزوجها ، رعاها وجعلها من أسعد نسوان الحارة ، وها هى الفاجرة تهجره عندما أعجزه المرض ..

وتسأل أمى عن حاله فتواصل المرأة :

ـــ طريح الفراش ، وحيد ، يبصق دما ويسعل حتى تنخلع ضلوعه ، يتمنى الموت ، ولما أزوره يقول لى : « انظرى يا امرأة خالى ما فعلته نظلة » فأشجعه وأواسيه وقلبى يتقطع ..

وأتخيل أن المريض والدم والمرأة الفاجرة .

ويمضى زمن ثم تزور الضيفة أمى وتقول :

ـــ شوفى العجائب ، لم يكد يمر شهر على وفاة المرحوم حسن حتى أوقعت الفاجرة شقيقه خليل فتزوجها ..

فتهتف أمى :

— نظلة ؟!

— ومن غيرها يفعل ذلك ؟، إلهى ينتقم منك يا نظلة يا بنت أمونة ..
وأتخيل أنا الميت والعاشق والفاجرة .

ويمضى زمن . ها أنا أذاكر دروسى فى حجرتى فيترامى إلى صوت أمى وهى ترحب بضيفة قائلة :

— أهلا بك يا ست نظلة ..

وأتساءل باهتمام ترى أهى الفاجرة ؟

وأتسلل إلى الصالة محتميًا بظلمتها وأرسل الطرف إلى حجرة الاستقبال ، فأرى امرأة — بين الأربعين والخمسين — بضة الجسم حسنة التكوين أنيقة الملبس . أعترف بأنها امرأة مثيرة .. وأنها تستحق أن تُعشق . وأعرف عنها معلومات جديدة ، منها أن زوجها الثانى — خليل — توفى أيضا بعد أن أنجبت منه ولدا ، وأنها تركت شقتها قبيل القبو لتقيم فى شقة صغيرة فى بيت قريب هنا ، وأدرك أيضا أن أمى لا ترحب فى أعماقها بزيارتها لنا . وأقول :

— إنها شريرة !

ولكن أمى تقول بحذر :

— الله وحده هو المطلع على الأفئدة ..

— تعطفين عليها رغم أنك لا ترحبين بها .

— سمعت الكثير ولكنى أرى امرأة ضعيفة وأمًّا لولد لا رجل لها ولا مال ..

وأراقبها من النافذة كلما سنحت فرصة . وتخيم على ذكريات

المرحومين حسن وخليل ولكنى لا أبالى . وأشعر بأننى مقبل على مغامرة أخطر من جميع ما مر بى من مغامرات . ولكن القصة لم تبدأ ..

ذات صباح تهز حارتنا صرخة مدوية .

ينتشر خبر بأن جارة ألقت على وجه نظلة ماء نار متهمة إياها بمحاولة خطف زوجها .

تفقد نظلة سحرها إلى الأبد .

تضطر إلى العمل فى حمام الحارة .

يشتد بى الحزن فترة من الزمن وأردد ما سبق أن قالته أمى :

ـــ الله وحده هو المطلع على الأفئدة ..

الحكاية رقم « ٢٨ »

يزورنا كثيرا .

أحبه لأنه يكاد أن يكون صورة متقنة لأبى . من أحاديثه المكررة فى إلحاح أبدى أن يخاطب أبى قائلا :

ـــ أيرضيك حالى هذا يا خالى ؟

فيقول له أبى :

ـــ يا محسن ، اعتمد على الله وعلى نفسك ..

ـــ يؤلمنى أننى غنى بما أملك من مال فى الأوقاف ولكنى عاجز عن صرف مليم واحد منه .

— هذا حال كثير من المستحقين .

ويضطر إلى أن يعمل كاتبا بثلاثة جنيهات شهريا فى وكالة الأخشاب بحارتنا . وتحاصره ظروفه القاسية فيتزوج من سوسن بنت نعمات الدلالة العاطلة من الجمال والمال . ويتقدم به العمر دون أن ينجب فيمضى حياته متحسرا . وتضرع زوجته إلى الله ألا يحل عقدة الوقف ، وتقول لأمى :

— لولا الفقر لفجر ، لولا الفقر لطردنى ..

لا حديث له إلا الوقف ، الوقف يا خالى ، الوقف يا امرأة خالى ، وأسمعه يردد بحرارة :

— يارب ، نفسى فى لقمة حلوة ومسكن نظيف وملبس لائق وأنثى ، أنثى حقيقية لا تمثال خشبى فى هيئة امرأة ، يارب نفسى فى ولد أو حتى فى بنت !

وتتقدم به السن أكثر ، وتدمع عيناه أحيانا وهو يرثى نفسه حتى ينال منى التأثر .

وتندفع الأحداث فتغير من إيقاع الزمن ورؤيته وتنحل عقدة الوقف !

ويرقص ابن عمتى من الفرح فأسأله :

— ما مقدار البدل الذى سيصرف لك ؟

فيقول بزهو :

— أربعون ألفا من الجنيهات ..

يدور رأسى . أتفرس فى وجهه بعجب . إنه يدنو من السبعين ، أبيض الرأس ، ضعيف البصر ، هزيل الجسد ، ليس فى فيه سنة ولا ضرس . أسأله :

— ماذا ستصنع بثروتك ؟

فيقول متهللا :

— قلبى يحدثنى بأننى سأمرح فى نعمته عز وجل ..

ثم يستطرد :

— سأشترى بيت عيوشة الحكيمة ، وأركب طاقم أسنان ، وأتزوج ..

— تتزوج ؟

— وسأنجب أيضا ، سوف ترى ..

ويجدد نفسه بتصميم كما يجدد الحياة من حوله . أبقى على سوسن ، ولكنه يتزوج من توحيدة بنت بياع الطرشى وهى بنت جميلة دون العشرين .

ويخبرنى ذات يوم قائلا :

— ولى العهد يتكون بإذن الرحمن ..

ويفرط فى الطعام بنهم لا يناسب سنه ، ثم يلزم الفراش عقب ستة أشهر من الزواج .

وأعوده فيقول لى بصوت خافت :

— لست نادما ، أبدا ، الحمد لله رب العالمين ..

وكان قد بنى مقبرة جديدة وجميلة .

الحكاية رقم « ٢٩ »

على البنان صاحب محل البن فى حارتنا صديق . يموت أبوه فيحل مكانه وهو فى طور المراهقة .

وذات يوم يسألنى وأنا أجالسه فى المحل :

— هل تعرف أنيسة بنت أمينة الفرانة ؟

فأجيبه ورائحة البن الصارمة تسيطر على حواسى :

— أعرفها طبعا ، حارتنا كلها تعرفها ..

— ما رأيك فيها ؟

— بنت فائقة الجمال وهى تشارك أمها فى العمل ..

— ماذا تعرف عن أخلاقها ؟

فأضحك قائلا :

— ما أكثر ما يقال !

— ولكننى متأكد من الكثير ..

ويحكم العمامة فوق رأسه . ويقول :

— أعرف أنها سقطت أول ما سقطت مع حمدان صبى الفران ..

أهز رأسى موافقا فيمضى هو قائلا بنبرة اعترافية ثقيلة :

— ضبطت أيضا مع الحنفى صبى محل الطرشى تحت القبو .

— إنك تتكلم بلهجة حزينة أكثر من الضرورى ..

— وقيل كلام أيضا عن علاقتها بخفير الدرك !

فأسأله ضاحكا :

— هل تنوى كتابة سيرة لها ؟

— وأيضا مع حسنين السقاء !

فأغرق فى الضحك وأقول :

— إنه لسلوك يستحق التأمل .

— ولعل ما خفى كان أعظم .

— من يدرى فلعلها ليست الوحيدة فى حارتنا !

فيتنهد قائلا :

— ولكنها الوحيدة التى أحبها !

فأخرج دفعة واحدة من جو المرح وأسأله :

— أتريد أن تنضم إلى طابور العشاق ؟

فينظر إلى طويلا ثم يقول :

— كلا ، لقد قررت أن أتزوجها !

— لا أصدق ..

فيقول بجد وتجهم :

— إنه قرار اتخذ بعد عذاب طويل ولا رجعة فيه ، ولا يهمنى ما يقال !

وينفذ على البنان قراره .

الحكاية رقم « ٣٠ »

يشب بطريق الحموى فيجد نفسه متزوجا .

كان أبوه مقاول بناء أميا فأراد أن يفرح بآخر العنقود فى حياته فاختار له بنتا وزوجه منها وهو تلميذ فى الرابعة عشرة من عمره .

يسعد التلميذ باللعبة الجديدة فيجعل منها حكاية يشعل بها قلوب أقرانه المتلهفة وأخيلتهم المحمومة .

وينجح « بطريق » فى حياته المدرسية ويتفوق فيكمل تعليمه العالى ثم يبعث إلى إنجلترا عامين . وعقب عودته يتعذر عليه التوافق مع ماضيه ، زوجته خاصة ، يتنافران فى كل شىء ، يضيق بجهلها وخرافاتها ، يتهاوى فى الغربة والفشل ، ويقول لخاصته :

ـــ لا يمكن أن تمضى الحياة هكذا ..

ويتخذ قرارا حاسما وقاسيا ، من خلال معاناة طويلة ، فيطلقها .

ويلهج كل لسان فى الحارة بلعنه ومروقه ، ولكنه يلقى المدّ المعادى ببرود ، بل ويتحداه أكثر فيرجع ذات يوم بزوجة جديدة أجنبية ، يزعم أنها فرنسية ، ويصر أهل حارتنا على أنها رومية من بين السورين !.

ويذهبان ويجيئان معا وهى تشع سفورا ونورا ، ترمقهما الأعين بازدراء واستنكار ، ويترحم المترحمون على المعلم الحموى .

وتتطاير تساؤلات محرجة عن سلوك الزوجة الجديدة واختلاطها

بالرجال ، وما يقال عن إدمانها الخمر ، وعن صحة عقيدتها الدينية ، هل يعتبر إسلامها حقيقيا ؟، هل تنشىء أبناءها نشأة إسلامية سوية ؟

يعانى بطريق الحموى ذلك كله ويتصدى له بما يستطيع من قوة واستهانة .

ولكن ثمة متاعب جديدة من داخل بيته تهب عليه بلا رحمة . ها هى زوجته تضيق بالحارة وأهلها ، وعاداته الأصيلة تتعرض لمؤاخذتها وسخريتها ، وهو كلما تهاون فى حق طولب بالمزيد من الاستسلام ، حتى يسلم فى النهاية بأنه غارق فى التعاسة حتى أذنيه .

ويقال له :

ـــ طلقها وأمرك لله ..

ولكنه يجيب بإصرار :

ـــ محال أن أسلم بالهزيمة ..

أما هى فتقترح الطلاق من ناحيتها ولكنه يرفضه بإباء .

وإذا بها تهجره ذات يوم فتغادر الحارة والوطن .

وتمضى الأعوام وبطريق الحموى أعزب لا يفكر فى الزواج .

يقترح عليه إخوته أن يرد زوجته الأولى فيقول ساخطا :

ـــ هذا سخف !

ـــ هل تعتزم استرداد الثانية ؟

ـــ إنه الجنون نفسه .

ثم يقول برزانة وتأمل :

— لا بد من الزواج ، وعاجلا أيضا ، لم تضع التجربة هباء ، فإنى على الأقل الآن أعرف ما أريد ..

الحكاية رقم « ٣١ »

من قصص الحب المؤثرة فى حارتنا قصة سيدة كريم .

ينشأ حب عفيف مستور فى خفاء بينها وبين إدريس القاضى ابن الجيران ، رغم التكتم والحياء تفضحهما النظرات وأحوال العاشقين . ينشب خصام بين الشيخ كريم مدرس اللغة العربية وعم حسنين القاضى بياع الحلوى . أدب ابنك ، ابنى مؤدب ، كلمة من هنا وكلمة من هنا ، فيوشك الكلام أن يتحول إلى فعل لولا تدخل أهل الخير . ولكن يستيقظ الرقباء وتحد الأعين فيعانى العاشقان فى صمت وقهر . وعندما ينتهى إدريس من المرحلة الثانوية يقنع أباه بأن يخطب له سيدة ، فيمضى الرجل على مضض إلى الشيخ كريم طالبا يد ابنته ، ولكن الشيخ يقول له بجفاء :

— ابنك تلميذ وبنتى لا يمكن أن تنتظره ..

ثم يقول الشيخ لبعض خلصائه :

— كيف يطمع فى مصاهرتى ذلك البياع الحقير ؟!

ويتقدم ابن الحلال المناسب لطلب يد سيدة .

ولكن سيدة ترفضه !. ليس الرفض بالأمر الهين ولا المألوف ، إنه فى الواقع ثورة غير متوقعة أذهلت الشيخ والجيران ، وزلزلت الأسرة بالغضب

والعنف والتأديب ، ولكن سيدة تصر على الرفض ، وتصارح أباها بأنها تمارس حقها الدينى !

وكالعادة المرذولة فى حارتنا تغمغم الألسنة بالشائعات والشكوك وتختلق الأوهام ، ويتناهى ذلك إلى الشيخ كريم فيركبه حزن ثقيل حتى ينوء به كاهله فيختطفه الموت وهو يلقى درسه فى الفصل .

وتتحمل سيدة مسئولية موت أبيها أمام الأسرة والناس . تصبح ملعونة شؤما متهمة متجنية كالمرض المعدى .

وتتزحزح الأعوام فلا يتقدم لها خاطب .

وينجح إدريس فى دراسته العالية فيتقدم إلى عم حبيبته طالبا يدها !.. ولكن لا يلقى إلا الرفض والتجهم ، حتى الأم لا توافق ..

وتمر الأعوام ، ثقيلة عند المعاناة ، خفيفة لدى العد والإحصاء ، سيدة شبه سجينة لا يطلبها أحد ، وإدريس موظف يثير التساؤلات بإعراضه عن الزواج . ولا يشك أحد من المقربين إليها أو المقربين إليه فى صمود الحب وإصراره وتحديه المتواصل لكافة العراقيل .

ويندب إدريس للعمل فى بعض البلاد العربية وتنقطع أخباره أعواما ، على حين تجاوز سيدة ربيع الشباب ويغيض رونق صباها وتتلبسها صورة تعاسة مجسدة .

ويرجع إدريس من غربته رجلا فى منتصف الحلقة الخامسة . لم يعد أحد يذكر قصته ، ولم تعد القصة تثير أى اهتمام عند من يتذكرونها .



وتحد الأعين فيعانى العاشقان فى صمت وقهر

وتعرف حقيقة غير مألوفة فى حارتنا وهى أن إدريس ما يزال أعزب ، لم يدخل دنيا و لم يمارس أبوة .

ويمضى إدريس إلى أم سيدة يطلب يد ابنتها !

ويدهش كل من يعلم بالخبر معلقا عليه بأن سيدة لم تعد عروسا تسر الحبيب .

ويتم الزواج متوجا حياة منصهرة بالعذاب والإصرار والوفاء .

الحكاية رقم « ٣٢ »

سنان شلبى يعمل فى مطحن الغلال فيما يلى السبيل القديم . تلوح منه نظرة نحو النافذة فى البيت القائم أمام المطحن فيلمح وجها أسر فؤاده وسيطر على أقداره . يأسر فؤاده ويستحوذ على إرادته بقوة لم يكن يتصور وجودها بحال . وقال لنفسه : « لقد جننت يا سنان وما كان كان » .

والجميلة لا تغادر البيت فيما يعلم ولكن أم سعد هى التى تتصدى للمعاملة والتسوق ، وهى امرأة معروفة فى الحارة . والعلاقة بين أم سعد والجميلة غامضة ، عرضة لشتى الاحتمالات ، فالأسرة لا تزور ولا تزار ، فمن يكون سعد ؟، أين هو ؟، والمرأة أهى أم الجميلة ؟، قريبتها ؟، خادمتها ؟، ثم تنتشر أقوال تسىء ولا تسر .

يقول سنان شلبى :

— أريدها ، إنى مجنون بها ، بالحلال أو بالحرام أريدها ، ولو دفعت حياتى الغالية ثمنا لها ..

ويوثق سنان علاقته بأم سعد فى ترددها الدورى على المطحن . ويلمح لها عن رغباته الخيالية ولكنها تتجاهله وتشجعه فى آن فينفحها بالهدايا الصغيرة التى يطيقها من اللبان والحنتيت والسكر ، وعند ذاك تقول له :

ـــ الجوهرة غالية وأنت رجل على قد حالك !

فيقبض الفقر قلبه ولكن الجنون يبسطه فيقول :

ـــ ربنا يقدرنا .

ويدرك لتوه أن الجميلة تحترف الحب ولكن ذلك لا يثنيه عن سعيه فإن جنون العشق يتسلط على إرادته بعنف ويأسره فلا يترك له اختيارا أو مجالا للتردد .

وتقول له أم سعد :

ـــ الأمر ليس يسيرا ، يوجد حراس لا تراهم ، وغاية ما أستطيعه أن أدلك على الطريق ..

وتمد له يدها بحركة ذات مغزى فيضع لها فيها قطعة فضية من ذات الخمسة القروش ولكنها تردها بإباء ولا تقبل بأقل من عشرة قروش أو عشر أجر سنان فى شهر كامل !. وتقول له :

ـــ أتعرف المعلم حلمبوحة ؟.. قل له إنك حاضر من طرفى ، إنه راعيها وولى أمرها وهو الذى جاء بها إلى حارتنا من المجهول ..

فيقول سنان بضيق :

ـــ ظننتك ستوصلينني بغير وسيط ..

ـــ لا أملك إلا أن أدلك على الطريق ..

ويذهب سنان إلى حلمبوحة فى دكانه الصغير الذى يبيع فيه الدخان

والمنزول . يجده كما يعهده عجوزا أعمش جاف الخلق فيحييه ويقول له همسا :

ـــ إنى قادم من طرف أم سعد .

فيرمقه بازدراء ويقول باقتضاب حاسم :

ـــ جنيه مصرى !

فيقول سنان بارتياع :

ـــ إنه مبلغ جسيم يا معلم ..

فيعرض عنه قائلا :

ـــ وفر نقودك واذهب لحالك ..

لا شيء يمكن أن يثنى سنان عن مطمحه . إنه يبيع خاتمه الفضى الموروث عن أبيه بجنيه ويهبه لحلمبوحة مسلما أمره للمقادر . يتفحص الرجل الجنيه ، يدسه فى جيبه ، ثم يقول لسنان :

ـــ لم يبق إلا هريدى الحملاوى ، تعرفه ؟

يغوص قلب سنان فى صدره ويسأله :

ـــ ما شأنه ؟

ـــ إنه خطيب البنت ، ولا يرضى بأقل من جنيهين ..

فيتأوه سنان قائلا :

ـــ إنها ثروة ، ثم إنها سلسلة بلا نهاية ..

ـــ هريدى ختام السلسلة ..

ـــ ولكن من أين لى بالجنيهين ؟

ـــ خذ نقودك واذهب .. .

ويرد إليه الجنيه بحدة . يتناول سنان الجنيه بقلب طافح باليأس ثم يمضى بلا هدف . وتقوده قدماه إلى البوظة فيسكر حتى يقول لنفسه :

— سأبلغ مناى ولو طرت إليه فوق سحابة ..

ويذهب من توه إلى أم عليش بياعة البيض بحجرتها الخشبية فوق سطح أم على الداية فتقول له مستاءة :

— إنى لا أتعامل مع الزبائن فى حجرتى ..

فيرمى بثقله فوقها فجأة ويكتم أنفاسها ولا يتخلى عنها إلا وهى جثة هامدة ..

* * *

إنه يعى تماما ضرورة أن يهرب فى الحال قبل أن تكشف الجريمة . لا يشك أن كثيرين رأوه وهو يتخبط فى الحارة ثم وهو يتسلل إلى بيت أم على الداية . إنه يعى تماما ضرورة الهرب ولكنه لا يفكر إلا فى الحب .

ويذهب إلى المعلم حلمبوحة فينقده الجنيه ثم يمضى إلى هريدى الحملاوى بالجنيهين فيصحبه الحملاوى إلى بيت أم سعد .

* * *

يقول الرواة إن سنان دخل حجرة محبوبته كمن يدخل الملكوت . وفى نشوة الخمر ارتمى على قدميها فى هيام ، وما يدرى إلا وهو يبكى من الوجد . واجتاحته لحظة ثراء فأشرق وجدانه بالصراحة والصدق فقال :

— لقد قتلت ..

ولم تفهم المحبوبة كلمة ، ولم يقدم هو على الفعل .

وانطرح الزمن خارج وعيه حتى هل أول شعاع للضياء .

وارتفعت من الطريق جلبة ، ودقت الأرض أقدام ثقيلة ، فتلقى سنان أول إشارة خفية ، واستسلم بأريحيه للمقادر ..

الحكاية رقم « ٣٣ »

مرت فترة بحارتنا يمكن أن تسمى بعصر زينب .

الأب بياع فاكهة ، والأم بياعة بيض ، وزينب آخر عنقود مثقل بالذكور . وهى جميلة ، فلتة رائعة من الجمال ، وفى جمالها تتلخص حكايتها .

فى طفولتها كانت لعبة تتخاطفها الأيدى ، فى صباها تألقت تباشير الفتنة ، فى الشباب استوت آية من البهاء والأبهة .

ويقول زيدان الأب لزوجه :

ـــ البنت يجب أن تحجب فى البيت .

فتوافق الأم كارهة إذ أنها تفضل بطبيعة الحال لو كان فى الإمكان أن تسعى زينب لرزقها ..

ويتكالب الخطاب عليها فترتبك الأسرة حيال الطلاب ، وتقول الأم :

ـــ من العدل أن يكون حظها فى قوة جمالها ..

لذلك ترفض يد ابن أختها سواق الكارو ، فتتمزق أواصر الأخوة ، وتنشب معركة بين الأختين تتفرج عليها الحارة ما بين شامت ومتعجب

ولا عن .

ويتقدم لها فى وقت واحد تقريبا حسن « صبى طرابيشى » وخليل « صبى جزار » فيجران إلى معركة عنيفة يخرجان منها بعاهتين مستديمتين .

وإذا بفراج الدرى المدرس يطلب يدها ، أفندى محترم وموظف حكومة ويعتبر بالقياس إلى بيئة زينب حلما من الأحلام . وتقول الأم :

ـــ هذا من نرحب به ..

ولكن على بياع القلل يعترض سبيل المدرس ذات يوم ويهمس فى أذنه :

ـــ إن تكن تحب الحياة حقا فابعد عن زينب ..

ويستعين المدرس بقريب قوى من أهل التحرش والتحدى فيعتدى الرجل على بياع القلل ، ولكن بياع القلل يضطغنها فى نفسه ويتربص لفراج افندى ثم يفقأ عينه !

عند ذاك يجفل المحترمون من أبناء حارتنا إيثارا للسلامة ولا يبقى إلا الحرافيش .

وتهتف الأم المغيظة :

ـــ يا ميلة البخت ..

وتحتدم المنافسات ، وتتعدد الاعتداءات ، وتتساقط التهديدات ، ويلتزم آل زيدان الحياد التام خوفا من العدوان ، ورغم بلواهم وكربهم تلفحهم أنفاس الحاسدين وألسنتهم ، حتى يقول زيدان لبعض أصدقائه :

ـــ لقد حلت بنا نقمة اسمها الجمال !

وتتكرر الخناقات وتكثر الإصابات ، وتمضى زينب وأسرتها لعنة

مجسدة تستقطب الكراهية والحقد والحسد ورغبة خفية فى الانتقام .

عم زيدان لا يجد فرصة ليتنفس فى هدوء ، ويخاف أن يغدر غادر بزينب نفسها ..

ويطلع صباح فلا نقف لآل زيدان على أثر . ويتفشى الوجوم والكدر . وأمنى بخيبة لا يدرى بها أحد . وبحزن أتساءل :

— ألا يتيسر للجمال أن يهنأ بالبقاء فى حارتنا ؟

الحكاية رقم « ٣٤ »

هنية بنت علوانة الدلالة من بطلات الحب فى حارتنا .

أتساءل كثيرا عن سر حبها لحمام صبى الخياط البلدى . إنه فتى سيىء الصورة والسمعة ، شرس الطباع ، تعكس عيناه نظرة تحد وعدوان ، يرتدى جلبابه على اللحم ويمضى حافى القدمين . ثم إن هنية بنت متعلمة ، مكثت فى الكتاب ثلاث سنوات ، تفك الخط وتجمع الأرقام وتحفظ جزء عم ، وأمها ميسورة الحال ، ووقت الغداء تفوح رائحة القلى من مطبخهم .

وهنية ترفض يد حامد المراكيبى بياع المراكيب عندما يتقدم لخطبتها . وتبكى الأم بحرارة وهى تحكى مأساتها لأمى :

— تصورى ، حامد المراكيبى الرجل الكامل صاحب القرش .

فتتساءل أمى :

— كيف وبنتك عاقلة وحافظة كلام ربنا ؟

— قالوا لى إنه معمول لها عمل فذهبت إلى الشيخ لبيب وزرت الأضرحة ونذرت النذور .

ولكن هنية تصر على رفض يد حامد . وتغضب أمها وتلطمها على وجهها وتصيح بها :

— تفضلين عليه المجرم ؟، بعدك ، ولكن مكتوب عليك الشقا .

ويتراجع حامد المراكيبى ويتلاشى ، ويبدأ حمام جادا فى التفكير فى أعباء الزواج وما يقتضيه من التزامات جديدة نحو مظهره وسلوكه . غير أنه يتهم فى هذه الأثناء بجريمة السرقة مع الإكراه فيقبض عليه ويزج فى السجن عامين .

تبتهج علوانة الدلالة بالحل الذى جادت به السماء وتقول لهنية :

— أرأيت ؟، سبحان الله الذى لا يعلو على برهانه برهان .

ولكن هنية تصر على رفض حامد المراكيبى وتغرق فى حزن عميق حتى يشفق عليها الغاضبون . ويقول كثيرون إنه لا حيلة لها فى الحزن ، وإن حمام لا يقتلع من قلبها بلا أثر . ولكنها تصر على الرفض حتى يمر العامان ويرجع حمام إلى الحارة . وتدب الحياة من جديد فى هنية ويجن جنون أمها . ويلقى حمام صعوبة فى العودة إلى عمله الأول أو الالتحاق بأى عمل آخر . ثم يرى سارحا بلحمة رأس وطبلية ويتساءل كثيرون من أين جاء برأس المال ، ولا يعلم إلا فيما بعد أن هنية هى التى أمدته بأسورة ذهبية .

وتثور علوانة ثورة عنيفة وتستعدى على ابنتها القريب والجار ، غير أن هنية تعقد قرانها بحمام فى القسم وتحت حماية الشرطة.

وأشهد بأنها زيجة موفقة ، فهنية تشاركه فى العمل وتدبره له بحكمة يعجز عنها عقله المشتت حتى ينجح أو بالأخرى تنجح هى فى فتح دكان له ، أما الذكريات القديمة فلم يعد من المهم أن يذكرها أحد .

الحكاية رقم « ٣٥ »

فى موسم القرافة نزور أحيانا حوشا غير بعيد من حوشنا . أرى رجلا يقيم فى حجرة المواسم إقامة دائمة كما يستدل من وجود الفراش والكنبة والصوان . أسأل أمى عن هويته فتقول :

ـــ ابن عمة أبيك رضوان أفندى .

ـــ لماذا يقيم فى الحوش ؟ .

تتجاهل وقتها سؤالى ، وألاحظ خلو الحجرة من الرجل فى عام تال ، وأعلم أنه انتقل من الحجرة إلى القبر ، ثم أسمع قصته فيما بعد لمناسبة لا أذكرها .

إسرة رضوان أفندى تتكون منه ومن حرمه ومن صبى وصبية . الأم تشغف بالصبى على حين يشغف الأب بالصبية . يناهز الأخوان البلوغ فيمارس الأخ قوته فى معاملة أخته باسم الغيرة والرجولة حتى تضيق به وبالحياة فيغضب الأب لها وتسوء العلاقات بينه وبين ابنه ، أو على قول أمى :

ـــ سكن الشيطان بينهما !

يتطور النزاع إلى خصام أغبر ، تأديب من ناحية الأب بلا رحمة وتمرد من ناحية الابن بلا حذر ، حتى تفصل بينهما الكراهية العمياء فيتمنى كل للآخر الهلاك والفناء جهرا وبلا تحفظ .

وفى ختام المرحلة الثانوية يمرض الشاب بالسل ، ثم يفارق الحياة عقب اكتشاف المرض بستة أشهر . موت قاس مطوى على المكر والخديعة والسخرية فانهارت الأم وتلاشت آمالها فى الحياة وزلزل الأب زلزال الخوف والندم ، ويقول رضوان لأبى :

— إنها عملية نشل ، والخجل يمنعنى من مواجهة أمه .

وبعد مرور عام واحد لوفاة الابن تمرض أخته بنفس المرض .

وذات ليلة يجيئنا رضوان افندى وهو يجرى حافيا من أقصى الحارة ، مشعث الشعر دامى العينين فتهب الأسرة نحوه متسائلة وهى على يقين مما تتساءل عنه . يقول الرجل وهو يلهث ويطالعهم بعينين انطفأ فيهما نور الحياة :

— انتهى كل شىء !

يصفى الرجل بعد ذلك تجارته ، يهجر بيته إلى حوش القرافة ويقيم هناك على مقربة من قبر الفقيدين . وتصر حياته على الامتداد حتى يوافيه الأجل .

أما الأم فهى تواظب على زيارتنا ، وأراها وأتصل بها وأنا صغير وهى عجوز . يبدو أنها لا تذكر الماضى ، وتحب التسلية باستقراء الكوتشينة عن البخت . أتذكر جلستها وراء الأوراق المفندة وتكومى أمامها فى تشوف ، وهى تشير إلى صورة وتقول :

— فى سكتك واحدة ليست من دمك .

وتبتسم كثيرا فأقول لأمى :

— تيزة وليدة خفيفة وتحب الضحك .

فتتمتم أمى :

— ربنا معها ومع كل جريح .

الحكاية رقم « ٣٦ »

فى إحدى ليالى الأرق أرى من نافذتى هذا المنظر .

أرى شبح رجل يترنح ، يتلاطم مع الجدران ، يتعثر فيقع ثم يقوم بمشقة ، تندلق من فيه السائب أغنية « أنا أبله كنت هبلة » ثم يندفع فاقد التوازن كأنه ثور يتوثب للنطح ، وبعد مغالبة للقوى المجهولة ينطرح كالقتيل .

يراه بعض أهل الخير فيحمله أحدهم — لعله فران — ليطرحه على لوح عجين ثم يتعاون مع آخرين على رفعه ويمضون به ..

يصادفهم على بعد خطوات سكران آخر يترنح ويتعثر ويقوم ويقع وإذا بالسكران الأول يضحك من فوق لوح العجين ويصيح بالآخر :

— إخص ، حقيقة إنك مرة ، تسكر حتى تقع من طولك وتضحك عليك الناس ؟. سفخص .

فى زمن متأخر ، وفى ظروف غاية فى الجدية ، يعاودنى ذلك المنظر حاملا إلى معانى جديدة لم تخطر لى على بال من قبل حين رؤيته .

الحكاية رقم « ٣٧ »

عم ينسون الصرماتى كهل لا تشوب سمعته شائبة . يموت ابنه رمضان عقب مرض لم يمهله طويلا . يحزن الكهل كالمتوقع ولكنه يقدم على فعل غريب يجعل منه أحدوثة الحارة قبل أن تجف دموعه . ما ندرى إلا وهو يعقد زواجه على دليلة خطيبة ابنه المتوفى ، يعقد زواجه عليها ولما يمر على الوفاة شهر واحد ! هل جن الرجل ؟

وعلى فرض جنونه ألا يسعه أن ينتظر عاما أو بعض عام ؟

وكيف توافق دليلة وفارق السن بينهما أكثر من أربعين عاما ؟

ولكن الخبر حقيقة لا شك فيها ، وها هى دليلة تنتقل إلى بيت عم ينسون لتعيش فيه مع زوجته وبقية أسرته .

وتتلوى الألسنة هامسة ، كان شيء بين المرحوم رمضان ودليلة ، يسره الزواج الوشيك ، والثقة بغد لم يأت ، وتدخل الموت فقلب الميزان ، وتبدد الأمان ، فسقطت دليلة فى مأزق بلا حماية ولا أمل .

وتقف أمها على السر ، تفضى به إلى أم رمضان ، وترمي به هذه على زوجها المحزون ، مصيبة جديدة ، مصيبة بكل معنى الكلمة ، ولكن لا يمكن تجاهلها بحال ، البنت فى مأزق ، الجانى هو الابن الذى يسأل له الرحمة ، ويفكر ويفكر ثم يعزم ثم يقدم على أعجب زواج شهدته حارتنا .

تصبح دليلة زوجته ، وتلد فى بيته وليدها .

وثمة أناس باركوا فعل الرجل ودعوا له بحسن الجزاء .
وآخرون فى غفلة وبراءة رموه بالحماقة والجنون .
أما غواة السخرية فيشيرون إليه ثم يتهامسون :
ــ هذا هو أبو حفيده .

الحكاية رقم « ٣٨ »

وأنا ألعب فى الحارة تنطلق زغرودة من بيت الديب .
أكثر من صوت يتساءل :
ــ خير إن شاء الله .
فيبشرنا أحدهم قائلا :
ــ قرئت فاتحة نعيمة السقاف على شيخون الدهل .
يتناهى الخبر إلى فتحية قيسون وهى تغسل ملابس فى طست أمام مسكنها . تنتتر واثبة كالملدوغة ، تفك عقدة جلبابها ، تربط منديلها حاشرة ما تبعثر من شعرها تحته بلهوجة ، تتناول ملاءتها من فوق حجر فتتلفع بها بسرعة مجنونة محركة طرفيها كجناحى طائر كاسر ، تلوح بقبضتها مهددة ، ترجع رأسها إلى الوراء متوثبة ثم تندفع فى طريقها على يقين من هدفها وهى تصيح :
ــ والنبى ومن نبى النبى لأسود حظه وأطين عيشته وأشوه وجهه حتى

أن أمه نفسها لن تعرفه .

وتمضى مخلفة وراءها توقعات خطيرة ورغبة محمومة فى الاستطلاع وعواطف تتراوح بين الإشفاق والشماتة .

الحكاية رقم « ٣٩ »

صبرى الجوانى يثير دائما عاصفة من التساؤلات .

من بيئة كادحة ، يعمل فى دكان خردوات ، ثم يندب للجولان بشتى الخردوات فى الأحياء المجاورة . يتغير جلده بسرعة تفوق كل تقدير ، تتحسن صحته ويكتسى بحلة النعمة الزاهية . ينتقل إلى مسكن جديد ، يرى وهو راجع حاملا ورقة لحمة وفاكهة الموسم ، يجلس مساء فى المقهى يدخن البورى ويحتسى الزنجبيل ، ويقضى بعض السهرات فى غرزة المواويلى .

ويتزوج من بنت ناس ، ويرتدى البدلة بدلا من الجلباب ، وتنطق ملامحه بالرضى والثقة والأمان . وفى ليلة دخلة صديقه الحلاج يسكر ويرقص ويغنى ويبدى من فنون الانبساط ما لا يتصوره عقل .

وعقب الزفة يغادر الفرح ليرجع إلى بيته ولكنه لا يرجع إلى بيته . يختفى فلا يقف له على أثر أو خبر .

الحكاية رقم « ٤٠ »

يجلس وراء نافذة مصفحة بالقضبان ، يحملق فى لا شيء ، تتحجر فى عينيه نظرة لا معنى لها ، رأسه صغير أصلع ، يغمغم بين آن وآن :

— أين أنت يا حبيبتى !

نرمقه من بعيد بحب استطلاع ، نتجنب إثارته كما نبه علينا ، نتهامس :

— انظر إلى عينيه !

— ماذا يعنى ؟

— إنه مجنون .

كان يرى قديما هائما صامتا ، يتابع امرأة محجبة باهتمام ، يعترض طريقها فيفصل بينهما أهل المروءة .

ويقال إنه رأى فى حلم بنتا جميلة شغف بها أيما شغف ، وأن الحلم يتكرر ، وأنه يمضى باحثا عنها .

ويفقد الصبر فيأخذ فى التهجم على النساء ويهم بجذب النقاب ، ويتعرض بذلك للزجر والضرب والعنف . ويؤمن أهله بأنه ممسوس فيطوفون به على الأضرحة والشيخ لبيب ولكنه لا يبشر بشفاء .

ويقولون لأبيه :

— المستشفى لأمثاله وسلم للمقادر .

ولكنه يحبسه فى الحجرة ويصفح النافذة بالقضبان .



.. وأن الحلم يتكرر ، وأنه يمضى باحثا عنها

ويقبع نهاره وراء النافذة ، يحملق فى لا شىء ، ويتقدم فى السن ، ويغمغم من آن لآن :

ــ أين أنت يا حبيبتى ؟

الحكاية رقم « ٤١ »

إبراهيم القرد أضخم بناء إنسانى تشهده عيناى . لا أتصور أن يوجد بين البشر من هو أطول أو أعرض منه . مئذنة ، يتحسس طريقه بنبوت رهيب ، تحمله قدمان حافيتان كأنهما سلحفتان ، يقول أهل حارتنا إنه من لطف الله أن يخلق إبراهيم القرد ضريرا .

وهو الشحاذ الوحيد فى حارتنا فمنذ احترف التسول لم يتجرأ شحاذ آخر على ترديد « لله يا محسنين » .

يقعد الساعات متربعا عند مدخل القبو ، معتمدا على نبوته ، يصمت طويلا ، ينفجر بصوت كالرعد « يا أكرم من سئل » ، يجيئه الطعام فى أوقاته ، تتراكم المليم فى جيبه ، يتبادل التحيات مع السابلة .

وبسبب من حدة التناقض بين قوته الخارقة وبين حرفته المستضعفة فإنه مثار للابتسام ، ولكن بلا حنق أو حقد ، فحسبه أنه ابن حارتنا وحسبه أنه لا يستثمر قوته فى العدوان .

ويشاء الحظ أن أشهد معركته الكبرى .

ففى أحد المواسم يهبط حارتنا زلومة ــ شحاذ ضرير أيضا ــ من القبو

راجعا من القرافة مثقلا بالفطير والتمر ، فيختار مجلسا غير بعيد من القرد ليستريح من عناء يوم مظفر .

ها هما الشحاذان الضريران يجلسان على جانبى مدخل القبو كأنهما حارسان . ويتلقى القرد بأذنيه الحادتين رسائل خفية من حركات شفتى زلومة ، كما يتلقى أنفه رسائل مغرية من جراب الأغذية ، يتجه رأسه نحو الرجل باهتمام وتساؤل وتحفز .

ويهتف زلومة فى غبطة :

— يا حسين يا حبيب النبى يا سيد الشهداء .. مدد .

فيقطب إبراهيم القرد ويتساءل بغلظة :

— من ؟

فيجيبه زلومة ببراءة :

— سائل على وجه الكريم !

— وماذا جاء بلك إلى هنا يا بن الزانية ؟

فيسأل زلومة بحدة :

— أملكت أرض الله ؟

— ألا ترانى ؟

— إنى أرى بنور القلب .

فيتمتم إبراهيم القرد :

— عظيم .

يتمطى بنيانه قائما ويمضى نحو زلومة وكأنما يراه ، يقبض على منكبه ، لا أدرى ماذا يفعل به ولكنى أرى الرجل وهو يصرخ ويتلوى ويستغيث .

ويتجمهر أناس كثيرون ، يخلصون بينهما بعناء شديد ، يبدر من البعض كلمات غاضبة :

ـــ افتراء وظلم .

ـــ أنت وحش .

ـــ أنت لا تخاف الله !

ويصيح إبراهيم القرد :

ـــ عليكم اللعنات .

ويغضب أحدهم فيرميه بسلة محطمة ملقاة .

ويثور القرد . أجل يثور ثورة أكبر من ثورة مظاهرة زاخرة . كأنما هرست له دملا . يجن جنونه ، يهدر بأقذع الشتائم ، يشهر نبوته ويدور به ويضرب به كل مكان فيرتطم بالجدران والأشياء ، ينشر الفزع فى دائرة آخذة فى الاتساع . يتفرق الرجال ، يركضون ، يتلاطمون ، يعثرون فيسقطون ، يصيحون ، يستغيثون . القرد ينقلب قوة عمياء مدمرة تجتاح الحارة ، يلوذ الناس بالأزقة الجانبية ، تغلق الدكاكين ، تتحطم الكراسى والسلع وتنقلب السلال والمقاطف .

وتتدفق قوات الشرطة على الحارة . يذهل الضابط عندما يدرك أن المعتدى ما هو إلا شحاذ ضرير ، ثم يأمر جنوده بإلقاء القبض عليه .

وتتجدد المعركة بين القرد والجنود ، يخوضهاالجنود ، عزلا من السلاح بأمر من الضابط ولكنهم لا يلبثون أن يتطايروا فى الهواء كاللعب ، إنه قوة لا تغلب .

ويتجمع الغلمان فى الأطراف ويشجعون القرد بهتاف صاخب . الحق

أننى لم أر رجال الداخلية من قبل على حال من التعاسة كما أراهم الآن . ويصيح الضابط من داخل بدلته البيضاء ذات الشريط الأحمر :

— يا قرد . ستضرب بالرصاص إن لم تسلم نفسك فى الحال .

ولكن القرد يتمادى فى التحدى منتشيا بثوران القوة والنصر . ويرحمه الضابط فلا يأمر باستعمال هراوة أو بندقية ولكنه يستدعى بعض رجال المطافئ .

ويتدفق الماء من الخرطوم كالشلال فينصب بقوته التى لا مفر منها على القرد . يرتبك القرد ويتعثر ويدور حول نفسه معرنحا منهزما حانقا قاذفا بسيل من السباب المقذع ، ثم يتهاوى فوق أديم الأرض بلا حول فينقض عليه الجنود بالأغلال .

ويغيب القرد عن حارتنا فترة من الزمن ، ولكنه يرجع ذات يوم ببنيانه الضخم وهامته المرفوعة فيلقى استقبالا حميما وتحيات حارة .. ، فيواصل حياته السابقة متعملقا عند مدخل القبو مثل أسطورة .

الحكاية رقم « ٤٢ »

البرجاوى منهمك فى عمله بدكان الطعمية .

يمر به الكفراوى فيطلب منه شربة ماء . تتملك البرجاوى نزوة مزاح فيشير إلى حوض الماء الذى منه تسقى الحمير والبغال ويقول :

— إليك الحوض فاشرب .

ويضحك أناس من الزبائن فيغضب الكفراوى ويصيح به :

— أنت جبان وقليل الأدب .

فيغضب البرجاوى بدوره ويصيح به :

— ملعون أبوك وأجدادك !

وتتبادل قذائف من السباب ويتجمع مشاهدون من أعمار متفاوتة . ويسعى إمام الجامع لفض الموقف ولكن أحدا لا يلقى إليه أذنا فينسحب مستاء .

ويتصاعد النضال فيتناول الكفراوى طوبة يقذف بها الدكان فتحطم المصباح الغازى الكبير المدلى من السقف ، ويفقد البرجاوى أعصابه فيقبض على يد طاسة الطعمية ثم ينقض على الكفراوى فيضرب بها وجهه ورأسه ولا يتركه إلا جثة هامدة .

ويهرع إلى مكان الحادث أهل الكفراوى وأهل البرجاوى فيخوضون معركة دامية يستعمل فيها الطوب والعصى والسكاكين ، فيقتل من يقتل

وينتهى مصير الباقى إلى السجون .

وأعيش عمرا فلا أرى فى دارى البرجاوى والكفراوى إلا نساء وبنات يسعين فى السواد ، يحزننى ذلك بطبيعة الحال وأعلق عليه بما يناسبه .

غير أن كثيرين من أهل حارتنا يفخرون بذكريات الغضبات الهادرة والملاحم الدموية ، ويتشرفون جهرا بالسجون والمشانق .

الحكاية رقم « ٤٣ »

حواش العداد من أصحاب المزاج فى حارتنا .

فى ليلة عيد يقرر أن يحيى سهرة كبرى فى بيته . يلبى دعوته كثيرون من الصحاب والمعلمين والمطربين والعوالم والراقصات . وتلعب الأوتار وتتهادى الأنغام فى جو من العربدة يهيج أشواق المحرومين ويثير استهجان أهل التقوى والورع .

ويتواصل الطرب والعربدة حتى قبيل الفجر بقليل ثم يخلد الجميع لنوم عميق ..

وعند ضحى اليوم التالى ، والحارة ثملة بأفراح العيد ، تصدر عن بيت حواش العداد ضجة غريبة وصيحات فزع كأن صاعقة انقضت عليه .

ويهرع الناس نحو البيت وهم يتساءلون ، ثم تنتشر أخبار لم يسمع بمثلها من قبل .

يقول الرواة إن الداعى والمدعوين استيقظوا فوجدوا أنفسهم مبعثرين

فى عالم خراب شامل لا يتصور ولا يوصف . إنهم يتذكرون كيف أن النوم سرقهم من بين أحضان المسرات وهم على خير ما يحبون ولكنهم فتحوا أعينهم على عالم لا يرى إلا فى أعقاب زلزال مدمر . فالأثاث النفيس قد تحطم إربا ، الكنب والدواوين والمقاعد والموائد تفتتت أكواما ونثارا ، الشلت والمساند والستائر والأغطية قد تهتكت وتمزقت وتطاير حشوها ندفا ، والقوارير والكئوس والأطباق والمواقد والجوز قد تكسرت وانتشر كسارها ، كذلك المصابيح والتحف وحتى السجاد والأبسطة والملابس . ماذا حدث ، لماذا حدث ، كيف حدث ؟!! .

وتحضر الشرطة فتعاين وتسجل وتستجوب ولكن التحقيق لا يسفر عن شىء . ويقال هنا وهناك إن خلافا دب بين السكارى فانقلب معركة حامية لم تبق على شىء ، وأن رجالا من ذوى الجاه توسطوا عند المأمور فغطى على الحادث بالحفظ ، ولكن لم يسمع أن أحدا من المدعوين جرح جرحا عميقا أو أصيب بعاهة .

ويقال أيضا إن أعداء لحواش العداد دسوا لهم منوما حتى ناموا ثم دمروا كل شىء بتصميم شامل ودقة وحشية بالغة ، ولكن ألم يكن من المنطق أكثر أن يوجهوا انتقامهم إلى الأشخاص أنفسهم ؟؟.

وعلى ذلك فلم يكن يصدق أحد هذا القول .

ويذاع كلام أيضا عن أن ما حاق ببيت حواش إنما جاء نتيجة لغضب من الله استحقه باستهتاره وفسوقه وعربدته وأن الداعى والمدعوين هم الذين خربوا دارهم وهم ذاهلون فى غيبوبة ثم تداعوا نياما شبه أموات .

وهذا تفسير يلقى عادة أذنا مصغية فى حارتنا ، ومثله ما قيل عن دور

العفاريت فى الأمر نتيجة لنذر نذره حواش و لم يوفه .

وتمر أيام وأعوام فلا يذكر أحد من حارتنا حادث ليلة العيد بدار حواش العداد حتى يبسمل ويحوقل ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

الحكاية رقم « ٤٤ »

هذه حكاية تروى عن عهد قديم لم أشهده .

كانت الزاوية حديثة البناء وكان إمامها وقتذاك الشيخ أمل المهدى . صعد الشيخ إلى شرفة المئذنة ليؤذن الفجر فانتبه إلى صوت يصدر عن البيت المواجه للزاوية ، مد بصره نحوه فرأى امرأة تفتح النافذة ورجلا يطبق يده على فيها ليمنعها من الاستغاثة ، ثم يجذبها إلى الداخل تحت المصباح الغازى المضىء ثم ينهال عليها ضربا بشىء فى يده حتى تهاوت ساقطة . عرف المرأة كما عرف الرجل ، أما المرأة فهى ست سكينة أرملة صاحب مقلى ، وأما الرجل فهو المعلم محمد الزمر صاحب وكالة خشب . تسمر الشيخ أمل المهدى فى مكانه متدثرا بالظلام مرتعد الفرائص من الرعب حتى أغلق المعلم النافذة . وراح يتمتم :

— لقد قضى على المرأة .

وخانه صوته فلم يستطع أن يؤدى الأذان .

جريمة قتل ، ماذا أوجد المعلم فى هذه الساعة ببيت الست ؟، توجد

أكثر من جريمة ، ارحمنا يارب السماوات والأرض !

وهبط السلم الحلزونى بمشقة ثم جلس على الأرض راكنا إلى المنبر ظهره . وجاء أوائل المصلين فهالهم منظره وسأله بعضهم :

ـــ لِم لَم نسمع صوتك يا شيخ أمل ؟

فأجاب لاهثا :

ـــ بى مرض والله أعلم .

وكان المعلم محمد الزمر هو من تبرع ببناء الزاوية ، وهو الذى اختار الشيخ إماما لها ورتب له أجره ، تذكر الشيخ ذلك فقال يخاطب نفسه :

ـــ يا له من امتحان عسير من رب العالمين !

ورقد الشيخ فى بيته ثلاثة أيام و لم يفتح فمه .

وانتشرت أنباء الجريمة فى الحارة فعرف كل من هب ودب أن الست سكينة وجدت قتيلة فى حجرة نومها وهى بجلباب النوم . وبدأ التحقيق ، واستدعى فيمن استدعوا الشيخ أمل المهدى .

سأله المحقق :

ـــ ألم تسمع صرخة أو صوتا ملفتا للسمع وأنت تؤذن ؟ .

فأجاب :

ـــ كنت مريضا فلم أؤذن تلك الليلة ..

ـــ أنت جار للقتيل ألا تعرف شيئا عن علاقتها بأحد ؟

ـــ كانت سيدة فاضلة ولا علم لى بشىء .

وغادر الشيخ حجرة المحقق وهو يقول لنفسه : « إنى لمن الهالكين » .

وجعل يبكى بشدة من الحزن والعجز .

واكتشف فى أثناء التحقيق سرقة بعض قطع من الحلى فحامت الشبهات حول صبى كواء كان يتردد على البيت وفتش مسكنه فعثر على الحلى وبذلك وجهت إلى الشاب تهمة القتل .

وبدا ذلك كله منطقيا إلا عند الشيخ أمل ، تابع الشيخ أنباء الجريمة باهتمام جنونى ، مضى يحترق فى صميم أعماقه وينهار عصبا بعد عصب . كان ورعا تقيا ولكن شجاعته كانت دون ورعه وتقواه .

ومن شدة القلق والحزن تهدم ودب الضعف فى أعصابه .

والتقى ذات يوم بالمعلم محمد الزمر أمام السبيل القديم فشد على يده كالعادة ، وعند ذاك انتفض كأنما مس ثعبانا ، وحدق فيه بقوة غريبة حتى تساءل المعلم :

ـــ مالك يا شيخ أمل ؟

فوجد نفسه يقول :

ـــ لقد رآك الله !

فدهش الرجل وسأله :

ـــ ماذا تعنى ؟.. أنت مريض ؟.

فهتف به :

ـــ اعترف بجريمتك يا قاتل !

ثم هرول إلى الزاوية فأغلقها على نفسه بالمفتاح والمزلاج . لبث فى سجنه يومين كاملين لا يستجيب لأهله ولا لأحد من الناس .

وعند مغرب اليوم الثالث فاجأ أهل الحارة بظهوره فى شرفة المئذنة . ولكن أى ظهور كان ؟. تطلعت إليه الأبصار بذهول وراحوا يقولون :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله ..

ـــ الرجل الطيب عار تماما .

ـــ يا شيخ أمل وحد الله !

ومضى يدور فى الشرفة متبخترا ويغنى بصوت متحشرج :

أمـا انت مش قـد الهوى بس تـــعشق ليـــــه ؟

الحكاية رقم « ٤٥ »

بحارتنا عامل بالسرجة يدعى عاشور الدنف . متزوج ، أب لعشرة ، فى الأربعين من عمره . يتميز بقوة شديدة وملامح خشنة وفقر مدقع . يتواصل عمله من الضحى حتى منتصف الليل ، لا يعرف الراحة كما لا يعرف الشبع . يحتقن بالحسرات إذا رأى الناعمين فى المقهى أو تطايرت إلى أنفه رائحة التقلية . وهو يغبط حمار الطاحونة فى السرجة كما يغبط العطار أو صاحب وكالة الخشب .

ويقول ذات يوم لسيدنا إمام الجامع :

ـــ الله يخلق الرزق ولكنه ينسى أبنائى .

فيغضب الإمام ويصيح به :

ـــ لقد بات سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعض لياليه رابطا على بطنه حجرا ليسكن به جوعه ، اذهب عليك اللعنة .

* * *

ويرجع عاشور الدنف عند منتصف ليلة من السرجة يشق الظلماء فيتهادى إليه صوت هامس ناعم يقول :

ــ يا عم عاشور !

يتوقف متلفتا أمام نافذة مغلقة فى دور أرضى ببيت الست فضيلة الأرملة المستحقة فى وقف الشنانيرى ، ويتساءل :

ــ من ينادى ؟

فيجيبه الصوت :

ــ أريد منك خدمة فادخل .

المكان مظلم ، حتى شبح التمساح المحنط فوق الباب لا يرى . يمرق من الباب ويمضى نحو المنظرة مهتديا بضوء يلوح فى شراعة بابها . يرى السيدة فضيلة متربعة على كنبة تركية فيقف بين يديها ناشرا فى المكان رائحة عرقه الفظة النافذة .

ــ أريد زيتا وكسبة ..

تقولها ببلاهة ، بلاهة تفضح مكرا ساذجا ، وتنضح بشرتها باعتراف قرمزى ، ويلمح فى جفنيها المسبلين معجزة الرضى والاستسلام ، ولكنه ليس الاستسلام الذى تبادر إلى خياله ، فما تزال حصينة وعاقلة ومدبرة ، ويغادرها بعد أن يوقن بأنها تريده فى الحلال !

* * *

ويلبث دهرا لا يصدق ، يتوهم أنه يتعامل مع حلم من الأحلام ، ولكنه يتزوج من الأرملة الغنية ، ويجرى ذكره فى الحارة نادرة من النوادر ومثالا من الأمثلة . لا يبالى طبعا أن يترك لها العصمة فى يدها ، ويترك عمله

بالسرجة كما شرطت عليه ، ثم يطالع الناس فى زى جديد وجلد جديد وهالة جديدة أضفاها عليه النعيم . وبمشيئة ست فضيلة لا يطلق زوجته القديمة ، وترتب لها ولأولادها ما يكفيهم فيباركون الزواج من أعماق قلوبهم . هكذا يعيش عاشور أحلامه القديمة ، فيشبع ويسعد .

* * *

وست فضيلة سيدة جميلة وكاملة ، تحبه وتسهر على راحته وتعيد خلقه من جديد .

وهى لا تفرط فى شيء منه . ناعمة مهذبة وفية ولكنها لا تفرط فى قيراط منه . ومنذ اللحظة الأولى يشعر عاشور بأنها حريصة على ملكيته ملكية كاملة، ظاهره وباطنه، أصله وظله. حتى فكره وأحلامه، فهو يعيش بين يديها ، فى الحديقة أو المنظرة ، وحتى الساعة التى يقضيها فى المقهى يرى شبحها وراء خصاص النافذة يطل عليه ، ولكنه ينعم رغم كل شيء بالحب والراحة والشبع .

* * *

وعندما يعتاد عاشور الطيبات ، عندما تطوى العادة معجزات الهناء ، يتسلل إلى روحه التثاؤب . يتوق إلى ساعة يخلو فيها إلى نفسه ، يهيم على وجهه ، يمازح صديقا ، يرتكب حماقة بريئة ، ولكنه يشعر دواما بأنه مراقب ، خاضع ، مطارد . الحق أنه لا ينقصه شيء ولكنه سجين . ثمة أغلال من حرير تحز عنقه مكان الأغلال الحديدية القديمة ، ويتدفق فى روحه التثاؤب .

ويجد الزمن طويلا ، ويجد الزمن ثقيلا ، ويجد الزمن عدوا .



مثيرة ومغرية ، وجادة ومحتشمة فى الوقت نفسه

(حكايات حارتنا)

ويقول لها ذات يوم :

— افتحى لى دكانا .

فتقول له :

— لديك ما تشتهيه النفس ، ماذا ينقصك ؟

فيقول متشكيا :

— كل رجل يعمل حتى الشحاذون .

ويوقن بأنها تخاف أن يستغنى عنها بالعمل أو يستقل عنها بالنجاح ، وهو لا يريد من العمل إلا أن يهيىء له قدرا من الحرية بعيدا عن نظرتها المستقرة .

* * *

ويرتد عاشور الدنف إلى التجهم والاحتجاج .

ويردد لسانه ألفاظ التذمر والظلم ونوادرهما .

ويغلى غضبه ويفور فيقرر أن يفعل ما يشاء فتجتاح رياح الشقاق هدوء البيت السعيد .

ويتمادى فى غضبه فيلطمها على خدها الأسيل ، فتطرده من الجنة فيذهب متحديا ..

* * *

ويتعرض فى تشرده لمتاعب كثيرة ، يلتقط رزقه بعناء ، يتورط فى أعمال مريبة ، يجلد مرة فى القسم .

وتحن الست إليه فتعرض عليه الصلح بشروطها ، ولكنه يرفض ، يصر

على الرفض ، يمضي فى سبيله المحفوف بالمتاعب والمخاطر .

يستحق عند ذاك أن يكون نادرة من نوع جديد فى حارتنا .

الحكاية رقم « ٤٦ »

كنت أعود سعد الجبلى فى مرضه الأخير عندما ترامت إلى الحجرة من الحاكى أغنية :

ما هو انت اللى جايبه لروحك بإيدك يا قلبى

فتنهد سعد وابتسم وتمتم :

— إى والله ، بإيدك يا قلبى .

وتبادلنا نظرة نطقت بتذكرنا لحياته المغامرة الحافلة بالمسرات والآلام .

* * *

سعد الجبلى كاتب حسابات بدكان الرهونات بحارتنا . طموح بعيد الأحلام فيبيع أرضا يمتلكها ويستقيل من عمله ثم يتاجر فى الروائح العطرية . يربح أرباحا كثيرة ، يصير من أثرياء الحارة ، ولكنه لا يتمتع فى الواقع بأخلاق التجار الاقتصادية .

كل ليلة يدعو إلى بيته نخبة من الصحاب ، يقدم الطعام والشراب ، يلعب بأوتار العود ، يغنى من له صوت مقبول ، تمتد السهرة حتى منتصف الليل .

ثم يخيب تقديره فى صفقة كبيرة ، لا يجد لديه من المدخر ما يسد به العجز ، يشهر إفلاسه ..

يجد نفسه هو وقبيلة مكونة من زوجة وأبناء وأخوات على باب الله .

تمر به أيام قاسية شديدة ، تؤذى صحته وكبرياءه معا ، ولكنه يبدو دائما رجلا قويا راسخ الأركان . يرجع إلى عمله الأصلى فى دكان الرهونات ، يعطى دروسا خصوصية فى الحساب ، يعيش عيشة التقشف .

وإيمانه قوى عميق .

أجل يشرب كثيرا ، لا يلتزم بالفرائض ، ولكنه مؤمن حقا ، تعتقد بأن لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، وأنه لا مفر من المكتوب .

ولا يقعده عن العمل إلا المرض فيلزم الفراش .

وأفكر بحال أسرته فيملؤنى الأسى .

وأشير إلى من يلعب فى الحجرة من الصغار وأقول :

ــ ربنا يشفيك من أجل هؤلاء !

فيقول باستسلام :

ــ أما الصحة فقد انتهت .

ثم يستطرد بثقة :

ــ أما الأولاد فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ويرفع أصبعه إلى فوق ويقول :

ــ الخوف كفر بالله ، أعوذ بالله من الخوف .

ثم بنبرة ساخرة :

ـــ أحسبت أن حياتى أطعمتهم حتى تخاف أن يجيعهم موتى ؟

أثمعن إيمانه منبهرا من قوته .

غير أن سعد الجبلى لا ينسى الدعابة حتى وهو فى أعماق المحنة ، فما أن يردد الحاكى :

ما هو انت اللى جايبه لروحك بإيدك يا قلبى

حتى يتمتم باسما :

ـــ إى والله ، بإيدك يا قلبى ..

الحكاية رقم « ٤٧ »

وشلبى الألايلى له حكاية تستحق الرثاء .

لطيف ومحبوب ولكن ثمة لحن مميز فى حديثه هو الإعجاب بأبيه . والفخر بالآباء شعار مألوف فى حارتنا ولكن المغالاة فيه لا تخلو من دلالة ولا يسلم على المدى من تهكم. وأبوه كان كاتبا فى دكان الخردوات، وكان طويلا عريضا ، والرجال يقيمون بالطول والعرض فى حارتنا .

يقول لى شلبى وهو يتنهد :

ـــ طالما رأيت أبى بعينى طفل أو من خلال عينى أمى أيضا !

فأقول له :

ــ هذا حال كثيرين منا .

ــ ولكن الطفل يكبر ثم يعمل عادة فى حرفة أبيه فيتسنى له أن يراه على حقيقته أما أنا فدخلت المدرسة وواصلت تعليمى فظل أبى فى خيالى أسطورة .

ــ أى أسطورة يا شلبى ؟

ــ أسطورة الجلال والثراء !

ثم يواصل بعد صمت قصير :

ــ ومات الرجل فهتك الستر من ورائه عن عالم غريب ..

ــ عالم غريب ؟

ــ لم يترك مليما واحدا ، كانت صدمة ، وقلت إنه الكرم قد أهلك ثروته ..

ويمضى فى قصته أو فى اعترافه فيقول إنه توظف ، وطمح ذات يوم إلى الزواج من كريمة تاجر الغلال ، وأراد أن يزكى نفسه عنده فأخبره أنه ابن الألايلى ..

ــ ودهمنى الرفض ، تحريت عن السبب بإلحاح شديد حتى عثرت عليه فى ذكريات أبى !

ــ هكذا ؟

ــ تصور حالى إن استطعت .

ويجرى لاهثا وراء مزيد من التحريات ينبش بها قبر الراحل فتتكشف له حقائق مريرة خافية ، أخطرها بلا شك اتهامه فى شبابه بالسرقة والحكم عليه بالسجن عاما . وقد قبل تاجر الخردوات بتوظيفه كاتبا عنده لصداقة

قديمة بينهما .

شلبى الألايلى يجتر همومه وحده ، حتى أمه لا تدرى شيئا ، وهو يفشى أسراره الدفينة لا ليجد شريكا يبثه همه ، ولكن لتوهمه أن سيرة أبيه أصبحت نادرة على كل لسان .

وتحدث الحقائق المكتشفة آثارا قاسية مناقضة فى حياته ، فها هو يلتزم بحياة مستقيمة نقية بل مثالية فى عمله وحارته . وها هو يتحرر بالفضيحة من سيطرة آراء الناس عليه فيعمل الصواب دون مبالاة بالآخرين . ويعدل عن طموحه إلى الزواج الممتاز ، ويثابر على التنويه بمآثر أبيه ..

ويقول لى مرة بصراحة صلبة :

— أهم شىء فى هذه الدنيا أن نعرف الحقيقة ..

ويغمغم بثقة وأسى معا :

— الحقيقة ولا شىء غير الحقيقة ..

الحكاية رقم « ٤٨ »

الأب موظف حكومي صغير وذاك أمر — على أي حال — نادر في حارتنا . لذلك ينشأ الابن — صقر الموازيني — محسودا بين أقرانه . ولكنه يقول لي ذات يوم :

— لو كان أبي صعلوكا ما عرفت الهم أو الغم ..

ويتوظف صقر مثل أبيه . وبعد عام من توظيفه يتوفى أبوه موظفا صغيرا فقيرا ، لا يورثه إلا أسرة مكونة من أم وعمة وأختين في سن الزواج وكآبة ، كما يورثه أيضا تقاليد راسخة تتعلق بالكرامة وتطلعات جامحة نحو الحياة الجميلة ..

وأكثرية النساء في حارتنا يرترقن ، أما في أسرة الموازيني وأمثالها فمقضي عليهن بالانتظار ، واجترار الأحلام ، ومقضي على صقر وحده أن يعمل بمرتب ضئيل ليعول أربع نساء وكلبة .

وتمضي الحياة ثقيلة مغلقة النوافذ ، ولا فرجة له إلا المقهى حتى منتصف الليل .

ويجد راحته في الشكوى فيقول :

— لن تتزوج أختاي أبدا ، فنحن لا نرضى بالصعاليك وأولاد الناس لا يرضون بنا ، ومن ثم فلن يتاح لي الزواج أبدا .

أسرة تعاني الأشواق والحرمان ، حتى الأم والعمة لم يجاوزا الخمسين .

وصقر شاب مستقيم رغم حيويته ، ذو استعداد شديد للحياة الزوجية ويحن لها حنينا :

ـــ بيت صغير وزوجة وأبناء ، تلك هى الجنة !

ويتنهد وتذوب نظرته حسرة وأحلاما .

* * *

وتضطرب جوانحه بعنف الكبت فيطفر فى صفحة وجهه الشحوب والشرود ، وبمضى الأيام يتفجر الحرمان سخطا على الأهل والنفس والناس ، ثم ينطبع البيت بطابع الشحناء ومرارة الملاحاة .

والنساء مجبرات على البقاء فى البيت ـــ إلا لضرورة ـــ منعا للقيل والقال ، تحبسهن التقاليد ، يجمعهن الحرمان ، يعذبهن الفراغ ، يتسلين بالنقار .

أسرة فى صراع دائم مع الحرمان والأهواء واليأس ، ونضال خفى مع حارسها الذى لا يقل عنها يأسا وعذابا .

حتى الكلبة تضطرب فى جنبات البيت مختنقة ، ممنوعة من الانطلاق خوفا عليها من القذارة ، تلاعب الضيف بعنف ، تنقض على ساقة تتمسح بها ، يجن جنونها لدى سماع نباح يترامى ..

* * *

ويتقدم العمر ، صقر يغط فى عزوبته ، وهن يذبلن ويغصن فى الماء ، ويتسربل الجو بالقتامة . والشاب بقدر ما يثير من عطف بقدر ما يستوجب من ازدراء ، لا علة واضحة لذلك ، ربما لأنه يصبح مثالا للإذعان ، والانحناء حيال المصير المحتوم ، ومرآة للاصطلاحات

والأساليب النسوية المقتبسة من البيت .

ويوما أرى كلبته فى الطريق وقد تدلت بطنها وانتفخت فأرمقها بابتسام وإعجاب :

الكلبة وحدها وهبت حارتنا ذرية جديدة .

أما صقر فبات يمقت أسرته ، ويقول عنها :

ـــ أسرة لا تعرف الموت ، كما لا تعرف الحياة ..

الحكاية رقم « ٤٩ »

أمنية كل صغير فى حارتنا أن يطوف به فى منامه زائر الليل .

إنه شخصية حقيقية بلا ريب ولكن مملكتها المضيئة تستقر فى القلوب البريئة . فى ليالى المواسم الأعياد يقولون لنا :

ـــ استحم وادخل فراشك فاقرأ الفاتحة وتمن ما تشاء واستسلم للنوم فربما أسعدك الحظ بمجىء زائر الليل ليحقق لك أمانيك ..

وتتابعت تمنياتى خلال مراحل متلاحقة من العمر ابتهالات يزفرها القلب بين يدى زائر الليل ..

ـــ يا زائر الليل أغلق الكتاب وخذ سيدنا .

ـــ يا زائر الليل افتح لى باب التكية واملأ حجرى بالتوت .

يا زائر الليل جدد مبانى حارتنا القديمة .

يا زائر الليل نجنا من الفقر والجهل والموت .

* * *

وفى صباى شهدت موكبا فخما يشق حارتنا يتوسطه رجل بالغ الروعة . اكتظت الحارة بالرجال وسدت النوافذ بالنساء ، جلجلت الزغاريد والهتافات ، صدحت المزامير والطبول .

زار الدكاكين دكانا دكانا ، والوكالة والسرجة والفرن والحمام والكتاب والمدرسة والسبيل الأثرى والقبو والزاوية والساحات ، حتى البوظة والغرزة والقرافة طاف بها .

بهرنى منظره فانبعثت فى قلبى فرحة لا حدود لها . وانتفض وجدانى عن عقيدة راسخة « إن هذا الرجل الرائع هو زائر الليل » وأنه جاء أخيرا استجابة لابتهالاتى فى هدأة الليل .

وهتفت بصوتى الرفيع الذى لم يناهز البلوغ :

ـــ ليحيى زائر الليل !

وحدث ما لم أتوقعه أبدا ، فقد وجم الناس ، وتقلصت وجوههم كأنما اندلق فى أفواههم عصير الليمون المالح . وقرص إمام الزاوية أذنى وصاح بى :

ـــ يا لك من ولد قليل الأدب !.

وأمر صاحب الوكالة أحد خفراءه قائلا :

ـــ أبعد هذا الولد الشقى ..

ودفعتنى الأيدى إلى بيتى وأنا من القهر والمهانة فى نهاية .

وجلست واجما محزونا دامع العينين حتى قال لى أبى :

ـــ إنك أحمق ، أنسيت أن زائر الليل لا يجىء إلا فى المنام ؟!

الحكاية رقم « ٥٠ »

فى زمن مضى لم أدرك منه إلا ذيله كانت الفتونة هى القوة الجوهرية فى حارتنا . هى السلطة ، هى النظام ، هى الدفاع ، هى الهجوم ، هى الكرامة ، هى الذل ، هى السعادة ، وهى العذاب ..

جعلص الدنانيرى فتوة خطير ومن أشد الفتوات تأثيرا فى حياة حارتنا . يجلس فى المقهى كالطود أو يتقدم موكبه مثل بنيان ضخم . وأنظر إليه بانبهار فيشدنى أبى من يدى قائلا :

ــ سر فى حالك يا مجنون .

وأسأل أبى :

ــ أهو أقوى من عنترة ؟

فيقول باسما :

ــ عنترة حكاية أما هذا فحقيقة والله المستعان ..

وهو عملاق مترامى الأطراف طولا وعرضا ، ذو كرش مثل قبة جامع ووجه فى حجم عجيزة ست أم زكى ، يتمايل فوق صهوة حصانه كالمحمل ، ولكنه سريع الانقضاض كالريح ، ويلعب بالنبوت فى رشاقة الحواة ، وعند القتال يقاتل بنبوته ورأسه وقدميه وأتباعه .

لا يسمع صوته إلا مزمجرا أو هادرا أو صارخا ، ودائما قاذفا سيلا من الشتائم . يخاطب أحباءه بيا ابن كذا وكذا ، يسب الدين وهو ذاهب

للصلاة أو راجع منها . لا يرى باسما أو هاشا حتى وهو يتلقى الإتاوات ويصغى إلى الملق ، يستوى فى ذلك عنده صاحب الوكالة وحمودة القواد ، وعلى مسمع ومرأى من وجهاء الحارة وأعيانها يضرط أو يكشف عن عورته !

يعجز مرة أحد التجار عن دفع الإتاوة فيستمهله أسبوعا ولكنه لا يقبل فيضطر الرجل إلى البقاء فى بيته مع الحريم حتى يجيئه الفرج .

ويعاقب ناظر المدرسة ابن أحد أتباعه فيعترضه لدى مغادرته المدرسة ويأمره بأن يخلع ملابسه ليذهب إلى بيته عاريا . يتوسل إليه الناظر أن يعفو عنه ويستحلفه بالحسين وقبر الرسول وجعلص متجهم متوثب ينتظر تنفيذ أمره . ويضطر الناظر إلى أن ينزع ملابسه قطعة فقطعة وهو يبكى . يتوقف عندما لم يبق إلا السروال فيزجر الدنانيرى فيرتعد الرجل ويخلع سرواله ثم يستر عورته بيديه ويجرى نحو مسكنه مشيعا بقهقهات العصابة .

وهو يهزأ من التقاليد الراسخة فلا يتردد عن إجبار شخص على تطليق زوجته ليتزوجها ، وهو كثير الزواج والطلاق ، ولا يجرؤ أحد على الزواج من إحدى مطلقاته فيلقين الحياة وحيدات يتسولن أو ينحرفن .

ويمرض يوما فيلازم الفراش أسبوعا ، ويخبره أحد قراء الغيب بأن ما أصابه إنما أصابه نتيجة لدعاء بعض أهل الحارة عليه ، فلما يبرأ من مرضه يأمر بألا يحتفل أحد بعيد الفطر المبارك ، حتى زيارة المقابر حرمت علينا ، وتمر أيام العيد والحارة خالية والدكاكين مغلقة والبيوت صامتة ويغشانا ما يشبه الحداد .

أيامه أيام رعب وجبن وذل ونفاق ، أيام الأشباح والأنات المكتومة ، أيام الشياطين والأساطير المخزية ، أيام التعاسة واليأس والطرق المسدودة .

ولكنه يرعب أيضا الحارات المجاورة ، ويسحق فتوات الحسينية والعطوف والدراسة ، فتمضى زفة العريس من حارتنا بلا حراسة ، ويتجنب الناس وقع خطانا اتقاء لتجهم المقادر .

* * *

ويقدر لهذا الجبل الشامخ أن ينهار فيما يشبه اللعبة .

يدعى إلى فرح فى الدرب الأحمر ، وعند مدخل البيت يتقدم منه غلام ويقول له :

ــ يا عم .

فينظر إليه من عل باستغراب ويسأله :

ــ ماذا تريد يا ولد ؟

وبسرعة البرق .

أجل بسرعة البرق يخرج من جلبابه سكينا فيطعنه فى أعلى الكرش ثم يشد السكين وكأنه يتعلق بها حتى المثانة !

بسرعة البرق وقع ذلك .

ويتجمد جعلص الدنانيرى كأنما دهمه نوم ، وتنحط معدته خارج جسمه ، ثم يتهاوى كعمارة بكل ما يتضمن من قوة وإقدام ووحشية وثقة فى النفس والدنيا .

ويتبين أن الغلام ابن أحد ضحاياه من كفر الزغارى دربته أمه وأعدته لتلك اللحظة .

* * *

ويجتاح الخبر حارتنا كالنار المستطيرة . نذهل ونفزع ونبكى ونصرخ .

ونتمعن الخبر ونتبادل النظر فيتسلل إلى جوانحنا استرخاء وأمان وامتنان وفرح .

ويستقر بنا الحال فنؤمن بأن علينا أن نحزن رغم أننا فرحون ، وأن علينا أن نغضب رغم أننا راضون ، وأن علينا أن ننتقم رغم أننا شاكرون .

ويضر بنا موته كما أضرت بنا حياته وتكفهر الحياة بلعنات الشياطين .

الحكاية رقم « ٥١ »

ألعب أمام البيت مبتهجا بشمس الشتاء .

فى الناحية المقابلة يلعب عبده ابن الجيران .

وهو ذو نظرة حالمة وصوت عذب وملامح آسرة ، ويعجبنى صوته وهو يغنى :

عجايب والله عجايب　　ما يصحش يا منصفين

تهجرنى وتعشق غيرى　　وعواذلى مهنيين

وفجأة يصمت عبده وتعرب ملامحه عن حزن بلا سبب ظاهر ، ويخيل إلى أنه يرمقنى باهتمام .

— مالك يا عبده ؟

ولكنه لا يرد أو بالأحرى لم يسمع . وكأنما يشرع فى الضحك ولكنه

لا يضحك . وتند عنه صرخة ثم يسقط على وجهه . يتصلب عوده وترتعد أطرافه ويطفح الزبد من شدقيه .

ويحمله أهل الخير إلى داخل بيته .

وأقص على أمي ما رأيت فهتفت بحرارة :

— الله معه ومع أمه المسكينة .

وأسمع همسا أنه ممسوس وأنه لا يوجد له دواء عند أهل الأرض .

وتسوء حاله ويسيطر عليه البله .

ويوما يرجع جعلص الدنانيرى من القرافة فى موكبه فتقف له الحارة على الصفين ويركبها الهول ، إلا عبده فإنه يعترض سبيل الفتوة بلا مبالاة ويقول :

— إنى ألعنك وطظ فيك !

وأقول لنفسى جزعا : لقد هلك عبده .

ولكن الجبار يبتسم ، بل ويتأبط ذراعه ، ويمضيان معا فى سلام .

لم يرحم الجبار أحدا فى حارتنا إلا عبده .

وتعلمنى الخبرة مع الأيام أن حارتنا تقدس طائفتين : الفتوات والبلهاء .

وتحوم أحلام صباى حول الطائفتين .

أحلم حينا بالفتونة وجلالها .

وأحلم حينا بالبلاهة وبركاتها !

الحكاية رقم « ٥٢ »

يقف زيان صبى مبيض النحاس بين يدى فتوة حارتنا السناوى مبتهلا فيقول له الفتوة :

— إن كنت صادقا فدعنى أجربك .

فيقول زيان بحماس :

— تحت أمرك يا سيد المعلمين .

فيقول السناوى بهدوء :

— اقتل أم على الداية .

ثم يأمره بالانصراف فينصرف قبل أن يفيق من ذهوله .

ويغوص زيان فى هاوية من الاضطراب ويتمتم لنفسه :

— إنها لمصيبة لم تجر لى فى خاطر !

* * *

قبيل ذلك اللقاء كان زيان فردا مغمورا من أهل حارتنا ، ومن الشبان الكادحين فى سبيل لقمة العيش .

وكان يطوى قلبه على حب مضطرم لأم على الداية بالرغم من أنها تكبره بعشرين عاما .

ويفكر فى حاله فتراءى له طريقه مسدودا ، ورزقه محدودا ، وأنه لن يروق فى عينى أم على إن لم يقلب حاله رأسا على عقب بضربة سحرية .

لذلك حلم بالانضمام إلى عصابة السناوى ليثب فوق حاجز الحظ وثبة موفقة .

ويتشفع لدى الفتوة بصديق لأبيه هو ميمون الأعور فيزكيه الرجل عند السناوى ويقدمه إليه ، غير أن اللقاء لم يستغرق إلا دقيقة واحدة أمره فى ختامها أمره المرعب :

ـــ اقتل أم على الداية !

* * *

ويهيم زيان على وجهه فى الساحة أمام التكية ولكن الله لم يهده إلى مخرج . ويتسلل إلى ميمون الأعور ليلا فى الغرزة فيقبل يده ويقول له :

ـــ يا معلم ، إنى خجلان ، ولكننى لا أستطيع قتل أم على الداية .

ويظن ميمون أن عجزه راجع إلى قلة الحيلة فيقول له :

ـــ ليس أسهل من ذلك فهى تدعى عادة إلى البيوت فى أواخر الليل .

فيقول يائسا :

ـــ أمنيتى أن أتزوج منها ذات يوم .

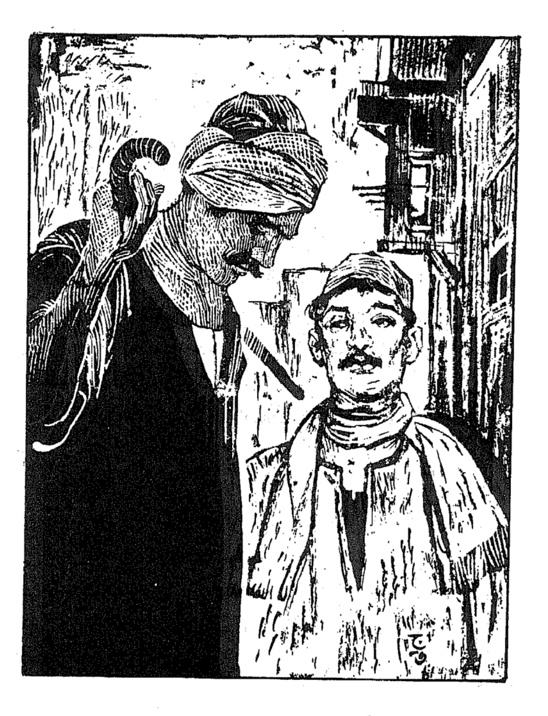
فيقول ميمون باستهانة .

ـــ اقتلها لتثبت جدارتك ثم تزوج من غيرها فالنسوان فى حارتنا أكثر من الذباب !

ـــ ولماذا أم على بالذات ؟

ـــ هذا أمر المعلم ولا مناقشة فيه ، وهو يريد أن يجربك ، بل لعله علم برغبتك فى المرأة .

فيقول متنهدا :



غير أن اللقاء لم يستغرق إلا دقيقة واحدة

— الحق أننى لا أستطيع القتل !

فيغضب ميمون ويصفعه ثم يقول :

— أحسبت الانضمام للعصابة لهوا ؟!

— أعرف الآن أننى لا أستحق هذا الشرف .

— فات الوقت !

— فات الوقت ؟

— لن يغفر لك تراجعك ولن تحلو لك الحياة فى الحارة .

ويمضى زيان وهو يعد نفسه فى الضائعين .

ويفضى بهمه إلى أمه فتنصحه بالهرب وتحثه عليه ، وقبيل الفجر يغادر زيان بيته حاملا بقجة ملابسه وخمسين قرشا ، هاجرا بيته وحارته وعمله ، مستقبلا العناء والمجهول .

وكان فارق الزمن بين سعيه إلى الفتونة وبين ضياعه عشرين ساعة من عمر حارتنا .

الحكاية رقم « ٥٣ »

ومن فتوات حارتنا حموده الحلوانى . ويحكى أنه الوحيد بينهم الذى عمر حتى بلغ التسعين من عمره ، كما أنه الوحيد الذى اعتزل الفتونة بحكم العجز والكبر .

وقد تاب وحج ولزم المسجد فى آخر أيامه .

ومما يؤثر من سيرته أنه جلس مع الإمام ذات مساء يتسامران عقب درس العصر ، فقال للإمام :

ـــ كثيرون يسيئون الظن بالفتوات ولكن أولاد الحلال بينهم كثيرون !

فابتسم الإمام وقال متهكما :

ـــ إنك على رأس أولاد الحلال .

فقال حمودة بإيمان :

ـــ حصتى من الخير لا يستهان بها .

ـــ عظيم ، أعطنى مثلا يا معلم حمودة ؟

ـــ أتذكر رجل الفل الذى اشتهر بمغازلة الزوجات المصونات ؟. أنا الذى دبرت مصرعه !

ـــ ولكنها جريمة يا معلم .

ـــ أبدا ، وأنا الذى قتلت سمعة الدنش الذى قتل ابن زوجته .

ـــ ولكن ذلك لم يثبت وقد برأته المحكمة !

ـــ طظ فى المحكمة ، كان قلبى دليلى وهو أصدق الحاكمين !

ثم بعد استراحة قصيرة إذ كان الكلام يرهقه فى أواخر عمره :

ـــ ومن حسناتى أننى قتلت فهيمة الآلاتية القوادة المعروفة !

فقال الإمام يازدراء لم تره عينا العجوز الضعيفتان :

ـــ قيل وقتها لأسباب لا علاقة لها بحرفتها !

ـــ لا تصدق كثيرا مما يقال !

فضحك الإمام وقال :

ـــ زدنى علما بحسناتك !

ـــ وقتلت أيضا يمنى الخيشى .

ـــ وماذا كان ذنبه ؟

ـــ العجرفة ، كان يسير فى الحارة كأنه خالقها .

ـــ تعنى أن نفسه سولت له أن يقلد فتوته !

ـــ إنك عنيد ولا تريد أن تعترف لى بفضل .

ـــ لا تغضب وزدنى علما بحسناتك !

فضحك حمودة عن فم لم يبق فيه ناب واحد ولا ضرس ثم قال :

ـــ حوادث القتل الباقية لا تعد من الحسنات وقد تاب الله على والحمد لله .

فقال الإمام بعد تردد :

ـــ ولكن أعجب ما سمعت من حوادث القتل ما ذاع عن مقتل قرقوش العبد !؟

فضحك حمودة واستغفر الله ، فقال الإمام بإلحاح :

ـــ حدثنى بخبره يا معلم حمودة .

فقال الرجل الذى لم يبد قط أن ذكريات جرائمه تؤرقه :

ـــ كنت جالسا فى داخل المقهى عندما جاء قرقوش العبد ليدخن البورى ، لم يكن بينى وبينه شىء على الإطلاق ، فدخن البورى وشرب قهوته ثم قام لينصرف وهو يقول لصاحب المقهى « غدا سأكون عندك فى مثل هذا الوقت بالدقيقة والثانية كما اتفقنا فلا تنس » ، وما أدرى إلا والغضب يجتاحنى فقررت فى الحال قتله ، ولم يطلع عليه الصبح !

ـــ أذلك كل ما كان ؟

ـــ بلا زيادة ولا نقصان !

ـــ ولكن ما الذى أغضبك ؟

ـــ لا أدرى ، حتى اليوم لا أدرى .

ـــ ولكن لا بد من سبب !

ـــ ربما أحنقتنى ثقته البالغة فى نفسه وفى غده ، كان يتكلم بثقة وطمأنينة !

ـــ ولكن لا بد من سبب غير ذلك ؟

ـــ قل إنه قتل بلا سبب !.

فتعجب الإمام ورمق الرجل بغرابة وذهول وكان الكبر قد أهزله فلم يبق منه إلا هيكل عظمى .

الحكاية رقم « ٥٥ »

ومما يحكى أنه كان بحارتنا شاب صعلوك يدعى عباس الجحش . لم يكن يوفق أبدا فى إتقان حرفة ولا يمكث فى دكان أكثر من أيام ثم يطرد شر طردة . وذات يوم رأى عباس عنباية المتولى بنت بياع البدندورمة فأترع قلبه برحيق الحب المسكر . ولم يجد سبيلا مشروعا إليها فتفتق عقله عن حيلة ، أن يتآمر مع صحبه من الصعاليك على أن يمثلوا مع الفتاة دور المتحرشين وعلى أن يمثل هو دور ابن البلد الشهم . وخرجت عنباية لتتسوق فى ليلة عاشوراء فحاصرها الصعاليك متظاهرين بالعربدة ، فوثب عباس الجحش من مجلسه على سلم السبيل ، فانقض عليهم كالوحش ، صرعهم واحدا فى إثر واحد حتى طرحهم أرضا ، ثم تقدم من البنت وهو

يلهث قائلا :

ـــ مصحوبة بالسلامة .

فشكرته ومضت معجبة بقوته الخارقة . وجعلت من مغامرته حكاية تتناقلها النساء والرجال .

وصادف ذلك وقتا خلت فيه الحارة من فتوة . ولم تكن الفتونة قد زالت بعد ـــ فتساءل أناس ترى هل آن لحارتنا أن يكون لها فتوة ؟

ورأى أحدهم عباس وهو يحوم حول بيت بياع الدندورمة فهتف به :

ـــ أهلا بالجحش فتوة حارتنا !

واهتز عباس بالهتاف ولعبت برأسه الأحلام ، وتحت سطوة المخدرات قال لنفسه :

ـــ فلنجرب هذه اللعبة !

وجمع أصحابه ، ومضى على رأسهم نحو المقهى بعد أن فرش طريقه بالدعاية المناسبة . وكانت الحارة فى حاجة ملحة إلى فتوة لتحفظ ذاتها وكرامتها بين الحوارى المتصارعة ، فاستقبلت عباس الجحش وصحابه بزفة وبايعته فتوة لها . وتحول الصعاليك إلى عصابة ، وانهالت عليهم الإتاوات ، فتحسنت أحوالهم ، وازدهتهم الخيلاء فخطروا فى الأرض كالجمال ، ورويدا رويدا صدقوا أوهامهم .

وطلب عباس الجحش يد عنباية المتولى فقال له أبوها بوجه طافح بالبشر :

ـــ بشرى لنا يا معلم !

وعقد القران .

أما الدخلة فلا تتم إلا بعد الزفة .

وتنبه عباس متأخرا إلى أن زفة الفتوة يجب أن تطوف بالحى كله ، وأنها الاختبار الرهيب للفتوة ، تجابهه فيها تحديات الأعداء ، فيرجع منها إلى شهر العسل وعرش الفتونة أو يمضى إلى القرافة .

لا بد مما ليس منه ، وماذا يمنع الحظ من أن يخدمه مرة أخرى ؟

وسكر وسكر أصحابه .

ومضت الزفة على أنغام المزامير وأضواء المشاعل ، وسار فيها رجال الحارة .

وعند باب زويلة .

عند باب زويلة اعترض الطريق فتوة العطوف ورجاله .

رآه عباس فطارت الخمر من رأسه .

ولعب فتوة العطوف بنبوته بخفة بهلوان فسقط قلب الجحش حتى ركبتيه .

وهتف أهل حارتنا فى حماس وبراءة فاضطر عباس إلى أن يلعب بنبوته كذلك .

لا يمكن تأجيل القضاء إلى ما لا نهاية .

وتقدم خطوات فى سكون ثقيل فتقدم فتوة العطوف فى غاية من الحذر .

واندفع عباس نحو خصمه حتى ذهل أصحابه .

وفجأة .

وفجأة وبسرعة البرق انحرف نحو عطفة الحنفى ثم انطلق فى ظلماتها

مثل رصاصة لائذا بالفرار !

ووجم الجميع دقيقة لا ينطقون ولا يفهمون .

ثم هدر المكان بالضحك والقهقهات والصياح .

ولم ير عباس بعد ذلك فى حينا كله . وظل قرانه معقودا حتى سقط بمضى المدة .

الحكاية رقم « ٥٤ »

الويل لنا عندما يشتد النزاع بين الحارات ، عندما تتصارع التحديات بين الفتوات .

نتوقع فى الليل أن تجتاحنا هجمة غادرة ، نتعرض فى تجوالنا فى الحى لتحرشات مباغتة ، تنقلب أفراحنا إلى معارك دامية ، يسود وجه الحياة ويكفهر .

ويغدو الانطلاق إلى الميدان محفوفا بالمخاطر أما التسلل عن طريق القرافة فيتهدده الشياطين وقطاع الطرق ، فننحصر فى حارتنا كالفئران فى المصيدة .

ذاك ما رواه الرواة عن فترة من حياة حارتنا الماضية .

* * *

ويقترح بعض أهل الحكمة هدم جزء من السور الشرقى ، يقولون :

— لا بأس من هدمه لنتسلل منه إلى صحراء الجبل ، ومنها إلى أطراف

الأحياء البعيدة التى نتعامل معها ونحن فى مأمن من الأخطار المحدقة بنا .

والسور عتيق يكون الجناح الشرقى للحارة ويقع على مبعدة يسيرة من سفح المقطم . وتطيب الفكرة لنا فنعهد إلى أحد المقاولين من أبناء حارتنا بتنفيذ الفكرة . ويتساءل أناس .

— ألا يمكن أن يهتدى العدو إليها فيباغتنا منها ؟

فيجيب أصحاب الفكرة :

— الوصول إليها عسير ، فبينها وبين العمران صحراء لا تدوسها قدم فضلا عن أنه من اليسير حراستها !

ويشرع العاملون فى العمل ، ويتهيأ لنا ممر إلى الصحراء نطلق عليه « ممر السبيل » حيث إنه يبدأ من نقطة تقع وراء السبيل الأثرى مباشرة . هكذا نخلق ممرا سريا للعالم الخارجى متجنبين طريقى الميدان والقرافة اللذين يحدان حارتنا من طرفيها .

ويتحدث مدرس الجغرافيا ذات مساء فى المقهى فيقول :

— نحن نتوهم أننا حققنا الأمان لأنفسنا وأنه لم يعد ثمة ما نخافه !

فيتعجب السامعون لقوله فيقول :

— كأن معاركنا مع الحارات المجاورة هى جملة ما يهدد سلامتنا !

فيزداد تعجب الناس من قوله وادعائه أما هو فيمضى قائلا :

— هنالك خطر هائل لا يفطن له أحد ولكنه كفيل بالقضاء على حارتنا كلها بضربة واحدة ..

ولما يسألونه عن الخطر المزعوم يجيب :

— الممر الذى شق فى السور الشرقى .

— ممر السبيل ؟

— لو ينهمر من السماء سيل فيكتسح السفح وينقض على الممر فيغرق الحارة !

وتتجمع فى أعينهم أمارات الذهول والسخرية ويقولون :

— إنها لا تمطر فى العام إلا مطرة واحدة وهى مطرة خفيفة كالدعابة .

ولكنه يستطرد غير مبال باعتراضهم :

— الجبل فوقنا ونحن نربض عند قدميه وحارتنا منخفضة فى الوسط .

ويضحك الجماعة ويقولون ساخرين :

— يريد منا أن نستهين بخطر داهم عاجل لا تقاء خطر وهمى لا يقع إلا فى خياله .

* * *

وتمضى أعوام والحارة منهمكة فى صراعها اليومى . المدرس يكرر تحذيره بين آونة وأخرى فلا يلقى إلا هازئا حتى أطلق عليه « الأستاذ مسيلمة » .

* * *

وتربد السماء ذات شتاء فتتراكم السحب وتسود وتهبط فوق المآذن .

وتهب عاصفة تدك العلالى فوق الأسطح وتلعب بأشجار التوت فى التكية .

وينهل المطر كأنه أنهار تتدفق من عل .

ويتواصل انهلاله ثلاثة أيام كاملة .

حدث كونى لم نعرفه من قبل غضبة فلكية كاسرة . وينصب من الجبل

طوفان فيندفع نحو الممر بسرعة قطار صاخب ، ويزمجر فى هدير شامل تحت التماعات البرق الخاطفة وهزيم الرعد المجعجع .

وتختفى أرض الحارة تحت طبقات من المياه المركزة المحصورة ، وتأخذ المياه فى الارتفاع فتغرق البدرومات وتكتسح الدكاكين والوكالات والأدوار السفلية وباحة السبيل وفناء المدرسة وتجعل من القبو خزانا ومن الساحة بحيرة ومن الممر الضيق بين التكية والسور نهرا زاخرا ، ثم تجتاح المياه المقابر فتجرفها وتقذف بالعظام والجثث فى أخاديد لا حصر لها تغطيها الأكفان والخرق البالية .

وتنهدم بيوت وتنقلب الأسقف مصافى وثقوبا فيهجر الحارة أهلها مذعورين وينتشرون فى الصحراء لاجئين مشردين والخراب يحيط بهم وارثا الأرض وما عليها .

محنة لا تنسى .

وذكرى مبللة بالدموع .

الحكاية رقم « ٥٦ »

لعب الطموح بقلب عبدون الحلوة العامل بالوكالة فقرر — كما فعل زيان فى زمن أسبق — محاولة الانضمام إلى عصابة « الدقمة » فتوة حارتنا ، واسترشد بأحد كبار العارفين فقال له :

— احذر أن تقترب منه بهذه السحنة أو هذه الرائحة أو هذا الجلباب المزيت ، كن مثل الماء الصافى النقى ثم جرب حظك .

وقال له أيضا :

— فتوتنا يحب الجمال والنقاء ، وهو طراز وحده فى سلسلة فتواتنا فافهم ذلك جيدا .

واقتنع عبدون بأن الطريق إلى الدقمة ممهد ميسور ، فذهب إلى الحمام ليغير جلده فى المغطس ، وأعد جلبابا ومركوبا جديدين . وفيما هو منهمك فى تجديد نفسه سأله صاحب له :

— ماذا هناك يا عبدون ؟. هل تفكر فى الزواج ؟

فباح له بسره ، وكان الآخر صاحبا أمينا فقال له :

— ليست النظافة وحدها هى ما تهم الدقمة ، إنه أيضا يحب الحكايات .

— الحكايات ؟

— عنترة وأبو زيد وغيرهما ، فإن لم تعرف السير تعذر عليك أن

تواصل الحديث دقيقة واحدة مع الدقمة .

— ولكن تحصيل ذلك يطول !

— عندك الراوى فى المقهى فلا تضيع وقتا إن كنت صادق الإرادة حقا !

ثم قال له وهو يمضى عنه :

— تغير الزمن يا عبدون ، فى بادئ الأمر كان الدقمة يرحب بأى رجل يروم الانضمام إليه ، أما اليوم فهو يستوى على عرش القوة دون منازع .

وتفكر عبدون فى الأمر مليا . وكان عبدون رجلا عاقلا . قال لنفسه إنه من الحكمة أن يأخذ الأمور بالهوادة والصبر والإتقان ، وألا يتكالب على هدفه تكالبا يفسده عليه . لبث فى الوكالة يعمل بهمة ، وتزوج ، وواظب على السهر فى المقهى يتلقى الحكايات على أنغام الرباب . لم تعد الحياة يسيرة أو مريحة ، فالعمل فى الوكالة شاق ، وأعباء الأسرة لا يستهان بها ، ومتابعة الحكايات مع استيعابها جهد متواصل ، ولكنه كان يهادن متاعبه بتخيل حلمه العذب يوم يمثل بين يدى الدقمة فى نقاء الماء وثراء الرباب .

وذاع سره ، وعرف كل من هب ودب أن عبدون الحلوة يعد نفسه للفتونة .

وانبرى له كثيرون من أهل الخير والنصح ، فقال له أحدهم :

— النظافة مهمة ، والحكاية مهمة ، ولكن الشجاعة عند الدقمة أهم من الاثنين !

— الشجاعة ؟

— أجل ، واحذر فى الوقت نفسه أن تستثير غيرته فيحنق عليك بدلا من أن يرضى !

— وكيف أوفق بين هذا وذاك ؟

— تلك هى مشكلتك وعليك أن تحلها بالفطنة يا عبدون يا ابن الحلوة !

وقال له آخر :

— والقوة مهمة أيضا ، عليك أن تثبت قوتك ، عليك أن تثبت أنك قادر على توجيه الضربات الحاسمة وأنك قادر أيضا على تحمل الضربات مهما اشتدت .. ، وعليك أن تثبت له أيضا أن قوتك لا توزن بحال بقوته .

— ولكن كيف يتأتى لى ذلك كله ؟

— تلك هى مشكلتك يا عبدون !

ساورته الحيرة ولكنه أراد أن يطمئن نفسه فقال :

— أهل الخبرة يقولون إنه يحب الجمال والنقاء والخير ، أشهد أن معاملته للبّان تقطع بميله الأصيل للخير !

فتساءل الآخر فى حذر :

— وماذا عن معاملته للسقاء ؟

فانقبض قلب عبدون لحظة ولكنه قال بإصرار :

— أخبرنى أبى ذات مرة أنه يحب الفقراء .

— بوسعى أن أعد لك عشرة على الأقل من أفقر فقراء حارتنا قد نكل بهم وشردهم .

خرج عبدون من الأحاديث معتما مهموما حائرا ، حتى العدول عن الطريق خطر له ، ولكن الحلم كان قد سيطر على روحه فلم يسعه النكوص . وتشعبت أهداف الحياة بين الوكالة والزوجة والرباب وتجارب القوة والشجاعة ومغامراتهما . ومضى — رغم صلابته — ينوء بالعبء ، وتنزلق قدمه ، وتتراخى قبضته ، تبدد وقته وتشتت عقله وارتكب حماقات متلاحقة ، وتمادى فى طرقه المتشعبة بجنون حتى فقد السيطرة على حياته ، وانتهى دأبه بالخيبة فطرد من الوكالة ، وطلق — عقب مشاحنات كثيرة — زوجته .

لم يكترث لذلك كثيرا وظن أن الوقت أزف للقاء الدقمة الذى لم يبق له غيره .

وتفحصه الفتوة مليا ثم سأله :

— ماذا تريد ؟

فأجاب عبدون :

— أن أصير من خدامك .

— أترى نفسك أهلا لذلك ؟

فأحنى رأسه ليخفى زهوه بمنظره الأنيق وقال :

— عندى ما يريد معلمى وزيادة !

فقال الدقمة بجفاء :

— لست فى حاجة إليك .

فذهل عبدون وقال بضراعة :

— فى سبيلك فقدت أسباب حياتى جميعا .

فقال الدقمة بلا اكتراث :
ـــ أعرف ذلك .
ـــ وتطردنى رغم ذلك ؟
فقال الرجل بنفاد صبر :
ـــ بل أطردك بسبب ذلك ..،
وبات عبدون الحلوة نادرة تروى ..

الحكاية رقم « ٥٧ »

زغرب البلاقيطى من فتوات حارتنا المعدودين . وهو خاتم الفتوات الكبار فمن بعده لم تقم للفتونة قائمة تذكر .

رشيق مديد القامة أبيض الوجه غزير الشارب خفيف الحركة بالنبوت لعيِّب . ولولا إيمانه ـــ وهذا حقيقة ـــ بأن هيبة الفتونة لا ترسخ إلا بالنصر ما خاض معركة قط . ويصادفه التوفيق فى معاركه فيضرب فتوة الدراسة ويصرع فتوة العطوف ثم يمتد ظله فوقنا كالشجرة السامقة بالفخر والطمأنينة . ونحبه جميعا ونتغنى بانتصاراته وننعم بأبوته اللطيفة . وهو يجلس كثيرا فى المقهى ليتابع الحكايات ، ويقرب إليه أهل النكتة والمنشدين والزجالين ، أحييه على صغر سنى فيرد التحية بذوق يبعث فى أعماق النشوة والأمل . وسلوكه معنا فريد غير مسبوق بشبيه . يفرض على جميع أعوانه أن يكسبوا رزقهم بعرق الجبين لا بالبلطجة ، حتى هو نفسه يعمل

تاجر جملة للمخدرات ، ولا يطالب بإتاوة إلا للضرورة القصوى .

* * *

ولكن الفتونة هى الفتونة على أى حال .

فكلمة زغرب البلاقيطى هى الأولى والأخيرة فى أى أمر من الأمور . والتحكم مرّ ولو كان طول العمر نتيجته . إنه يحذر الرجال من العربدة ويمنع النساء من الزينة المفرطة ويقيد حرية الغلمان فى لعبهم .

ويغالى فى التدخل فيما لا يعنيه حتى يحمل شاعر الرباب على التحيز لبطولة أبى زيد ، ويبطل الزواج الذى يراه غير متكافئ ، والطلاق الذى لا يعجبه وإن رضى به الطرفان ، ولم يكن أحد يتجرأ على طلب الكراوية أو الأنيسون عند وجوده فى المقهى لنفوره منهما .

وفى كلمة كبلنا بالأغلال رغم حسن نواياه وطيبة خلقه . وزاد من حرج الموقف تكاثر المتعلمين فى حارتنا يوما بعد يوم ، وشدة حساسيتهم ، وحدة ألسنتهم .

— اللعنة .. لم يبق إلا أن نتنفس بأمره .

— إنه مستبد ولكنه عادل .

— مستبد يعنى أنه غير عادل .

يسمع ما لم يكن يسمع بحارتنا . لأول مرة نعاصر حملة على الفتونة فى ذاتها وبصرف النظر عن مزاياها . لأول مرة يقال إنه نظام بال وأنه آن للشرطى أن يحمى العباد . لأول مرة يلعن الفتوة الطيب كما كان يلعن الفتوة الشرير .

ويترامى التهامس إلى زغرب البلاقيطى فيغضب ويصيح :

ـــ أهذا جزاء من يعدل ويرحم يا أبناء الزنا !

ويتجهم وينذر بالعنف .

* * *

وتتوجه قلوب نحو هجار الأقرع .

عملاق ورع وفيه شيء لله . إذا اقتنع بخير أقدم عليه ملقيا بالعواقب جانبا .

وهو يقبع فى الليالى فى الساحة أمام التكية يردد الأناشيد ويحدث نفسه . يتسلل إليه فى الظلماء رجل داهية ويهمس بصوت حنون :

ـــ أتريد يا هجار أن ترضى ربك ؟

فيعتقد هجار أنه يسمع هاتفا من الغيب فيقول :

ـــ لبيك !

فيهمس الرجل :

ـــ لقد أعطيت القوة والبأس فحطم الأغلال ..

* * *

وينطلق هجار فى الحارة بحماس من يحمل رسالة مقدسة .

وتوقع الطيبون أن ينهار سجن الأغلال .

ويلوح هجار المارد بنبوته . وفجأة يضرب إمام الزاوية . ويثنى بامرأة ماضية فى الطريق . وينهال بنبوته على تجار وعمال وتلاميذ !

وهاجت الحارة وماجت ، وتصايح الناس :

ـــ جن الأقرع ..

ـــ اقبضوا عليه ..



أهذا جزاء من يعدل ويرحم يا أبناء الزنا !

ــ حاصروه واضربوه ..

ورمى بالطوب من كل موقع حتى سقط مضرجا بدمه .

* * *

لم نفقه لما حدث معنى . وظن كثيرون أن الرجل لم يفهم الرسالة أو أنه أساء فهمها ، أو أن فى الأمر سرا ما زال خافيا .

ولكن التذمر من زغرب البلاقيطى يتزايد ، ويجهر كثيرون بما يضمرون ، ويعتدى الفتوة على أناس فيقابلون العدوان بالمقاومة ، وتسرى فى الحارة روح تمرد لا عهد لنا بها من قبل .

وتتتابع أحداث مؤسفة ودامية ولكنها تقضى فى النهاية على تراث خطير وتفتح الأبواب لعصر جديد .

وتستعاد حادثة هجار الأقرع فى ضوء جديد من الإدراك فيصبح رمزا للحياة الجديدة .

الحكاية رقم « ٥٨ »

يجيء ربيع ونحن على شفا هاوية من الهلاك . فى الحارة عصابات متخاصمة ، وبين الحارات المتجاورة خصام مستعر . ويغلى الحقد الأسود ، وتمج القلوب كراهية وتتكاثر حوادث الاغتيال ، وينذر الغد بكارثة .

وعند الظهيرة من يوم مشرق يقع فى مسرح الكون حدث غامض .

ثمة تجمعات من السحب القاتمة تنتشر فى الأفق ، غريبة فى غير زمانها ، ثم تنتشر بكثافة متصاعدة مقبضة للنفس . وتتطاول نحو كبد السماء وتنداح فتخفى إحداها الشمس وتوارى الضوء المنير .

وتمضى التجمعات فى التكاثر والتقارب . وتتصل وتتلاصق فتتحول إلى تكتلات شاسعة ، فى بطء ولكن فى ثبات وإصرار حتى تشكل فى النهاية سقفا غليظا من السواد العميق .

وتشخص الأعين نحن السماء متسائلة ، من الطريق والدكاكين والنوافذ والأسطح تشخص الأعين نحن السماء .

وتدب فى السقف الأسود حركة متوترة فيبدو متموجا متصارعا متلاطما كأنه محيط من الظلمات مشتبكا فى نضال ضار .

ويهرع الناس من البيوت إلى الحارة يتابعون الأسرار الغامضة ، لا يدرون عم تتمخض ، ويتوقعون مزيدا من الإثارة المقلقة .

ويمضى الجو يتشرب بلون رمادى غامق ، يزداد قتامة وتجهما ، ويمضى بحر السواد يقطر نتفا سودا ، تنتشر فى الجو ثم تزحف هابطة فى هدوء مخيف .

ويهجر الناس الحارة إلى الميدان ، كذلك يفعل أهل الحارات المجاورة ، ينشدون فى الانطلاق والتجمع البشرى ما يفتقدون من أمان .

وتنفذ إلى حواس الشم رائحة ترابية مثيرة للأعصاب ، ويأخذ الكون فى الاختفاء ، وتتخايل الأشباح ، ثم يغرق كل شىء فى ظلام دامس .

وترتفع الأصوات المتهدجة :

— يا ألطاف الله .

— ارحمنا يارب العالمين .

وتشملنا ساعة من التوقع المتوتر لأى خطر داهم لم يجر لنا فى خيال من قبل .

وتتلاحم الأيدى فى الظلام لا تدرى يد فى أى يد توضع ..

الحكاية رقم « ٥٩ »

غنام أبو رابية له قصة طريفة .

من ناحية الأصل يعد من فقراء حارتنا . تفوق فى المدرسة وعين بوزارة الداخلية ، وترقى فى درجاتها حتى شغل منصب المشرف المالى على الأموال السرية .

يتميز على صعاليك أسرته بالمسكن النظيف ، والزوجة الجميلة ، والغذاء الطيب ، وله فى مظهره هيبة ، وفى مجلسه قطب يقصده ذوو الحاجات .

* * *

ويختفى ذات يوم غنام أبو رابية فلا تراه عين .

يتردد السؤال عنه فى البيت والمقهى ، بين المعارف والأقارب والحساد . لا يظفر أحد بجواب حاسم ، ثمة غموض يكتنف الموضوع ويثير الحيرة والريب . ليس الرجل مريضا ولا على سفر ولا صلة له بالسياسة مدها وجزرها ، ولا خصوم له على الإطلاق ، فلم يبق إلا أن تحوم الظنون حول أمور غاية فى الحساسية . وأن تختلف فيها الآراء تبعا للنوايا والعواطف الشخصية ، فنسمع حينا أنه هرب ، ونسمع حينا آخر أنه قتل .

ويظهر غنام أبو رابية ذات يوم فجأة كما اختفى فجأة . ويتزاحم

المهنئون فى داره . ويفسر الرجل سر غيابه بخصام احتدم بينه وبين كبير مسئول فى الداخلية ، تطور إلى اعتداء من جانبه باليد على الكبير المسئول ، فقبض عليه ، ولكنه أصر على موقفه حتى أفرج عنه .

ويصدق الناس ذلك ويعدونه بطولة . ويحال غنام أبو رابية على المعاش قبل ميعاده القانونى بعشرة أعوام فيعتبر شهيدا ، والناس ذوو استعداد فطرى لسوء الظن بالداخلية .

* * *

ومع الأيام تناقل الناس حكاية جديدة عن غياب غنام أبو رابية ، لا أدرى كيف نشأت ، ولا من كان أول ناشر لها ، ولا مدى ما تنطوى عليه من صدق ، ولكنها رغم ذلك كله تنتشر وترسخ وتنضم إلى تاريخ حارتنا .

يقال والله أعلم أن غنام أبو رابية استغل مركزه كمشرف مالى على الأموال السرية فاختلس منها عشرة آلاف من الجنيهات ، وقيل أكثر من ذلك . وأنه ضبط وحقق معه واعترف . كان الموقف غاية فى الدقة والحرج ، فالرجل محيط بأسماء من توزع عليهم الأموال السرية فى جميع المواقع ، وبوسعه أن يثير فضيحة شاملة تعصف بجميع العملاء وتنزع الثقة من جهاز الأمن بغير رجعة ، فما العمل ؟. طالبوه برد المبلغ فى نظير العفو الشامل عنه ولكنه رفض . ألقوا القبض عليه لإرهابه ولكنه لم يبال . لم يعثروا للمبلغ على أثر ، وتجنبوا تقديمه للنيابة حتى لا يبوح هناك بأسراره ، وكرروا المحاولة للاتفاق معه دون جدوى . أدرك منذ بادئ الأمر أنه فى الموقع الأقوى وتلقى كافة التهديدات بسخرية . وقال لهم :

ـــ ألوف وألوف وألوف تنفق كل يوم على أوغاد بلا خلق فما الجريمة فى أن أنال قروشا لنفسى وتراب حذائى أشرف من أكبر رأس فيهم ؟. إنى أرفض رد مليم واحد وأطالب بتقديمى للنيابة العمومية .

ولم يكن فى وسعهم أن يعتقلوه إلى الأبد ، ولا أن يتحملوا مسئولية القبض عليه دون تقديمه إلى النيابة أكثر من ذلك ، فاتفقوا معه على أن يلتزم بصون أمانة المهنة لقاء ألا يسأل عما اختلس مع إحالته على المعاش فى الوقت نفسه .

وقد اشترى الرجل خرابة وشيد فيها عمارة واعتبر منذ ذلك الوقت من أعيان حارتنا .

الحكاية رقم « ٦٠ »

حليم رمانة من شباب حارتنا العاملين فى نقش الأوانى النحاسية . يغيب فجأة عن الدكان بلا اعتذار ، ويرى هائما على وجهه فى الساحة أمام التكية ، لا يعرف أحدا ولا يعرف نفسه . وسمعت أمه بالخبر فمضت إليه ولكنه لم يعرفها ، نادته باسمه فبدا وكأنه يسمعه لأول مرة ، إنه غريب تماما ، وكأنما ولد لساعته .

واتجهت الظنون إلى المخدرات ولكن ذهوله طال ، تجاوز اليوم ، ويوما بعد اليوم ، ثم استقر كحال جديدة ثابتة ، أصبح رمانة وعاء خاليا من الذكريات والعلاقات البشرية ، أصبح جثة غير هامدة . وقيل ـــ كالعادة

فى حارتنا — إنه ممسوس ، وعولج بوصفات شتى من الطب الشعبى المناسب ، كالبخور وزيارة الأضرحة والزار ،.ولكنه لم يبرأ فسلم الأمر فيه إلى الرحمن .

* * *

وذات صباح تقرأ أمه فى عينيه نظرة جديدة ، نظرة متألقة تعكس شخصية غائبة كأنما هى ترجع فجأة من سفر طويل . يخفق قلب الأم بالأمل وتهتف :

— رمانة !

فينظر رمانة إلى شعاع الشمس الهابط من نافذة البدروم ويقول بجزع :

— تأخرت عن الدكان .

ويمضى مسرعا إلى الدكان وأمه تجهش فى البكاء .

ويقبل على معلمه قائلا :

— غلبنى النوم فمعذرة يا معلم .

ويرمقه الرجل فى صمت وارتياب ، ولكنه يتركه يزاول عمله وهو يحدس بفراسة صادقة ما طرأ على الشاب . وينظر رمانة فيما حوله باهتمام ، ولما لا يجد ما يبحث عنه يسأل :

— أين بيومى ؟

بيومى صديقه وقرين طفولته ، توقع أن يراه كالعادة قبالته ، ولكنه لا يوجد ولا يريد أحد أن يعير سؤاله عنه اهتماما .

* * *

ويعلم رمانة رويدا أنه غاب عن الوجود أشهرا كاملة . يتلقى هذه

الحقيقة بنعومة وأناة ، ومع ذلك لا يدرى كيف يهضمها . ويعود للسؤال عن صديقه بيومى فيقال له :

— البقية فى حياتك !

فيصرخ :

— بيومى مات !

— بل شنق !

— شنق ؟!

— اتهم بقتل زينب بياعة الحلى الزجاجية !

ويتمتم بذهول :

— بيومى قتل زينب !

* * *

قليلون جدا الذين عرفوا أن رمانة فقد صديقه الوحيد وحبيبته الوحيدة ، وأولئك قالوا أيضا :

— وهو يعلم الآن أنه فجع فى الحب والصداقة أيضا !.

وقالوا :

— لقد ذهبا مخلفين له الخيانة والخواء ..

* * *

وعانى رمانة تغيرا فى الشخصية . لم يرتد إلى الغيبوبة لكن تسلل إلى صميم روحه الخمول وخيم عليه الصمت . عاش محتجا رافضا كارها ، يذبل ويهزل ، حتى مرض مرضا أقعده عن العمل ، واسود الأفق فى عينيه .

وأرادت أمه أن تعزيه فقالت :

ـــ لست فريدا فى مصابك فمصائب الدنيا لا تعد ولا تحصى !

فغادر المسكن من فوره قاصدا قسم الجمالية . مثل بين يدى المأمور وقال بهدوء :

ـــ أنا قاتل زينب بياعة الحلى الزجاجية ..

الحكاية رقم « ٦١ »

ابن عيشة صعلوك من صعاليك حارتنا يعيش بالتسول وخفة اليد . تسلل ليلة إلى بيت ست ماشاالله عندما ثبت له غيابها فى فرح . ولسبب ما رجعت ماشاالله مبكرة على غير توقع ، فما يدرى إلا وهى مقبلة نحو حجرة النوم فانذعر واندس تحت الفراش وهو يرتعد .

أشعلت المرأة المصباح ، رأى ابن عيشة قدميها وأسفل ساقيها وهى تذهب وتجىء ، وسمعها وهى تترنم بحنان :

لك على لما تيجى تبقى ليلة أبهة

ترى متى يتاح له الهرب بأمان ؟!

وغابت ست ماشاالله دقائق ثم رجعت بأربع أقدام !. ثمة طرف جلباب مقلم ومركوب أخضر ، فانقبض صدر ابن عيشة وأيقن أن حبسه سيطول !

قالت المرأة :

— آنست ونورت .

فقال صوت غليظ :

— لا يتصور أحد إلا أننا فى الفرح .

وتناهى إلى اذن ابن عيشة صوت مدغم بقبلات وهمسات مرحة .

قالت المرأة :

— لن يتخيل مهما تخيل أننى أفلت من زحمة الفرح .

فقال الصوت الغليظ :

— سيقتلنا يوما إن لم نقتله !

وطالت المطارحة الغرامية وهو قابع تحت الفراش ، وبدأ تأثير المنزول ينمل حواسه ويزحف نحو جهازه التنفسى ، وينتشر فى روحه منذرا بعواقبه المألوفة .

وسبح ابن عيشة فى بحر لا شاطئ له ثم مضى يطير فى الفضاء بتؤدة وهيمان . حتى بلغ ذروة عالية نظر منها إلى حجرة ست ماشاالله فرآها بشىء من الوضوح على ضوء المصباح ، رأى العاشقين ، وحتى الرجل المختفى تحت الفراش رآه ، تبدت المرأة عارية متموجة فى سحابة من دخان رمادى على حين مضى الرجل — كقرد — يثب بين غصون شجرة فارعة . وترامى اللعب بلا نهاية غير أن عاصفة اجتاحت المكان المتوارى فتطاير الدخان وتلاطمت الأوراق . وأكثر من صوت نادى بالدم ، وتتابعت أصوات الارتطام والدق ، وتبودلت ضربات غاية فى العنف والقسوة ، وأقبلت قوات جديدة من قلب الظلام فلم يعد للحب أثر ..

وقرر ابن عيشة أن يواصل طيرانه فى الفضاء مبتعدا ما أمكن عن

كوابيس الأرض .. ، ولكنه ارتطم بشيء أو لعل شيئا ارتطم به .

وبمشقة استطاع أن يتملص من قبضة وأمكنه أن يحرك عنقه .. ، وأن يرى الضوء .

وجُر جرّا من تحت الفراش .

وقف مترنحا فى الحجرة ينظر فى الوجوه المحدقة به بذهول .

وقال شيخ الحارة لضابط النقطة :

ـــ هذا ابن عيشة .. نشال يا فندم .

فقال الضابط :

ـــ أخيرا تعلم كيف يقتل .

وقبض عليه .

ولكن التحقيق لم يسفر عن إدانته بتهمة قتل ست ماشاالله وعشيقها ، ثم قبض على القاتل فى أثناء التحقيق .

وكان ابن عيشة يحكى قصته مرة كل ساعة . وقد أصابه لطف فى آخر أيامه ، وكان يقال إن الدروشة هبطت عليه تحت فراش ست ماشاالله .

الحكاية رقم « ٦٢ »

كان الحاج على الخلفاوى من أغنياء حارتنا . عرف بالطيبة والصلاح أكثر مما عرف بالثراء ، يعطف على المظلومين ، ويعين الفقراء ، ويبر ذوى القربى ، ومع الأيام ازداد ورعا وتقوى ورحمة ، ولكنه خص آل مهران برعاية شاملة لم يظفر بمثلها أحد ممن يظلهم عطفه . وكان آل مهران قوما فقراء ، وبسبب الفقر انحرف كثيرون منهم فتورطوا فى الجنح والجرائم واشتهروا بالعنف والبلطجة .

ولما شعر الحاج على بدنو الأجل استدعى إليه أكبر أبنائه وقال له :

ــ لقد رأيت حلما .

فرمقه الابن بعطف واستطلاع فقال الحاج :

ــ آن لى أن أزيح عن صدرى جبل الهم الأكبر .

فسأله ابنه :

ــ ما الحلم ؟. وما الهم الأكبر ؟

فاستغفر الحاج ربه وقال :

ــ بخلاف الظاهر يا بنى كانت حياتى مريرة !

ــ لم يا أطيب الناس ؟

فقال الحاج وهو يتنفس بمشقة :

ــ أريد أن أحدثك عن آل مهران .

— إنهم أناس يأخذون منك أكثر مما يستحقون ، بل الحق أنهم لا يستحقون إلا العقاب .

فأسبل الحاج جفنيه وقال :

— إنهم يستحقون كل ما نملك !

ثم اعترف الحاج لابنه بأنه كان شريكا لمهران الأب فى شبابه الأول ، وأن الوفاة حضرت الرجل وهما فى سفر فسرق ماله .

— المال الذى استثمرته فصرنا به إلى ما نحن فيه وصار آل مهران بفقده إلى ما هم فيه .

قال الابن باضطراب :

— إنك لا تعنى ما تقول يا أبى .

— إنها الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان .

وغمرهما صمت مشحون بالقلق والاختناق حتى قال الحاج :

— كانت الحياة مريرة ، أريد أن أجنبك اللعنة ، أريد أن يرد المال لأصحابه .

فتساءل الابن محتجا :

— هل نعترف بأننا لصوص ؟!

فقال الأب بضراعة :

— هذه هى مشكلتك يا بنى .

— بل هى مشكلتك أنت يا أبى .

— إنى أتردى فى حضرة الموت .

فتساءل الابن بجفاء .

— ولِم لَم تفكر فى التكفير من قبل ؟!

وأغمض الحاج عينيه كأنما تلقى لطمة ، وغمغم :

— اللهم مد فى عمرى حتى أهيىء نفسى للقياك .

ولكنه مات قبل ذلك ، بل إن رواة القصة يتهمون ابنه بالعبث بدوائه ليعجل بنهايته .

هكذا تروى الحكايات ، وبدقة فى التفاصيل لا تتاح إلا لمن شهدها .

ولكن هكذا تروى الحكايات فى حارتنا ..

الحكاية رقم « ٦٣ »

بذرت الكراهية بين شلضم وقرمة فى ضفاف الصبا . فى أحد الأعياد مزق شلضم جلباب قرمة الجديد فاشتبكا فى خناقة حامية فضرب قرمة شلضم بمقدم قبقابه فقطع حاجبه ، وسجل فى وجهه أثرا باقيا .

منذ ذلك التاريخ القديم عششت عاصفة صفراء ضاربة للسواد فى أعماقهما ، ويجمعهما اللعب مع الصبيان والاختلاط فى المناسبات ، ولكن الجرثومة الشرهة تظل رابضة ونفاثة للحنق ، ويظل منظر أحدهما قوة غادرة ومتحدية للآخر .

فى الكتاب يتبادلان الغمز واللمز ، يتحرش أحدهما بالآخر ويحرض عليه سيدنا الشيخ عند أية فرصة سانحة .

ومات أبو شلضم وأقيم سرادق العزاء كالعادة ، ووقف قرمة فوق

سطح غير بعيد وراح يغنى :

حـــود مـــن هنـــا وتعـــال عندنـــا

ولما خطب شلضم بنت الفسخانى حاول قرمة خطفها منه ، بالحيلة وبتسوىء سمعته عند أهلها ، وفى خلال ذلك تشاجرا بعنف فقطع شلضم قطعة من أذن قرمة وترك به أثرا باقيا كالذى تركه بوجهه من قبل .

وتزوج كل منهما وأنجب ، وتفرقت بهما سبل العمل ، وتقدم بهما العمر شوطا ، ولكن العقدة الكامنة لم تنحل ، حتى إنهما تبادلا السباب مرة فى أثناء صلاة الجمعة وحتى صاح بهما الإمام :

ــ لعنة الله على الشيطان وصحبه .

وصارا فى حارتنا نكتة ، تستثير الضحك من بعيد ، وتنذر بشر متجدد .

وتحسنت أحوال قرمة ، ظهرت عليه النعمة ، فتح دكانا للدخان بأنواعه ، لمع الذهب فى أصابعه وأسنانه ، وادعى أمام الخلق أنه ربح ورقة نصيب فاستثمر ربحها ، ولكن شلضم راح يحلف بالطلاق أنه اغتال أموال معلمه ، وأنه لص لا أكثر ولا أقل .

وتوهم شلضم أنه قادر على أن يشق سبيله مثله فامتدت يده إلى مال معلمه ولكنه ضبط وحكم عليه بالسجن بضع سنين ، وغادره مفلسا ضائعا يرى غريمه فى عداد الأعيان فجن جنونه ، ولم يجد بابا مفتوحا إلا باب البلطجة فولجة بعنف ورغبة متصاعدة فى الانتقام ، وجعل هدفه الأول المعلم قرمة ، حتى أثار مخاوف الرجل على نفسه وعلى أولاده . لم يعد قرمة صعلوكا كما كان من قبل ، إنه يملك الآن مالا وبنين وأسرة وجاها

ويريد أن يحافظ عليها جميعا ، وأن يتمسك بالحياة من خلال تمسكه بها ، ولو تجشم فى سبيل ذلك مهادنة شلضم وشراءه حتى يتحين له فرصة للقضاء عليه .

واستجاب شلضم لسياسة خصمه ليبتز ماله وليتمادى فى ذلك بلا نهاية وبلا حياء ، واستحر الموقف وأصبحت الحياة لا تطاق ولا علاج لها إلا الموت .

ودبر قرمة خطة لقتل شلضم بوساطة رجل ممن يؤجرون للقتل . وتوجس شلضم خيفة فقرر أن يقتل قرمة قبل أن يقتله .

وتربص له بليل ثم قتله .

ولكنه لم ينعم بالحياة بعده إلا ساعات إذ قتله القاتل المأجور ليستوفى بقية مستحقاته من أرملة قرمة .

هكذا قتل الرجلان فى ليلة واحدة .

* * *

ويقول أبى بعد أن يحكى هذه الحكاية :

ـــ الكراهية من الشيطان يا بنى ولكن الإنسان مثير للدهشة .

الحكاية رقم « ٦٤ »

عرف الخفير سلامة بالضمير الحى .. كان من القلة النادرة التى تقدس القانون فى حارتنا التى لم تتعود بعد على احترام القانون لحداثة تحررها من الفتونة وتقاليدها المتحدية الاستفزازية،ولاستقامته أثار دهشة أهل الحارة واستحق عن جدارة احترام المأمور والضباط . وتزوج سلامة أرملة تكبره فى السن ذات ابن يافع اشتهر بالفساد فوجد نفسه فى محنة لم تخطر له على بال . وأكد الشاب — ويدعى برهومة — المحنة بسطوه ليلا على أحد الحوانيت . وضبطه متلبسا الخفير الساهر اليقظ سلامة . وأعاد الخفير المسروقات وغطى على الخبر مكتفيا بضرب ابن زوجته ضربا مبرحا . وأفاق بعد حين قليل فأدرك أنه خسر جوهره الذى ميزه بين الناس ، وشعر بالخزى وخامره حزن عميق . وتمادى برهومة فى فساده فثار غضب سلامة وجعل ينهال عليه بالضرب حتى ضاق به الشاب وقال له مرة :

— لا تضربنى .. إنى أحذرك ..

فانقض عليه ليؤدبه ولكنه تراجع إلى ركن وصاح به :

— سأعترف ، سأذهب إلى القسم وأعترف بكل شىء ، وأعترف أيضا بتسترك علىّ !، إن ضربتنى مرة أخرى فسأعترف !

وذهل سلامة ، وسأله وهو يكتم فيضان غضبه :

— أنت تهددنى بعد كل ما فعلت من أجلك ؟

ـــ لا تضربنى وإلا اعترفت .

فصاح به :

ـــ إذن أقلع عن فسادك .

فهتف وهو يفر من وجهه :

ـــ أنا حر !

وقال سلامة لنفسه محسورا :

ـــ إنى أفقد كل يوم شيئا ثمينا لا يعوض .

ولاحظ كثيرون أن الخفير سلامة قد تغير ، وأن شائبة قد شابت استقامة قامته ، وهو من ناحيته شعر أن الناس يتغيرون أيضا ، ينظرون إليه باستهانة ما ، يجاملونه ولكن نظراتهم لا تخلو من سخرية ، لقد أوشكوا يوما مع إعجابهم به أن يحقدوا عليه لصلابة أخلاقه ، أما اليوم فهم يعطفون ويسخرون .

* * *

وأنهى سلامة عذابه بأن ذهب إلى المأمور واعترف .

وتأثر المأمور ، أمر بالقبض على برهومة ، وقال لسلامة :

ـــ قدم استقالتك كيلا ترفت ، إنى أعطيك هذه الفرصة إكراما لتاريخك .

* * *

ولم يُهمل سلامة بلا عمل طويلا فاستخدمه صاحب مخزن الغلال خفيرا عنده .

وعُدَّ سلوكه مثالا طيبا عند أناس، كما اعتبر نوعا من البله عند أناس آخرين.

الحكاية رقم « ٦٥ »

الشيخ لبيب وجه عتيق فى حارتنا . تراءى لعينى معلما من معالم الحارة مثل التكية والقبو والسبيل . كان يتخذ مجلسه قبيل مدخل القبو ، على فروة يجلس ، وبين يديه مبخرة تنفث رائحة دسمة مخدرة . ذو جلباب أبيض وطاقية خضراء ، مكحول العينين ضعيف البصر ، يطوق عنقه بمسبحة طويلة تستقر شرابتها فى حجره .

تتقاطر النسوان على مجلسه ، يجلسن القرفصاء صامتات ، يسرمين بمناديلهن وينتظرن كلمة تخرج من فمه . يغمغم ويتثاءب ثم يتمطى ، ينطق بكلمة مفردة مثل « تفرج » أو بمثل من الأمثال مثل « يا رايحين ربنا يكفيكم شر الجايين » فتفهم المرأة ما تفهم ، فيتهلل وجهها فرحا أو يغمق كآبة ، ثم تدس المقسوم تحت طرف الفروة وتمضى .

عاش الرجل دهرا رزقه يجرى ، وكراماته تروى ، واسمه يتردد على شفاه ذوى القلوب الكسيرة وما أكثرهم فى حارتنا .

* * *

ويطعن الشيخ لبيب فى السن وتتغير الأحوال .

يندر تردد الزائرات عليه حتى ينقطع أو يكاد . ويتكاثر التلاميذ ممن لا يرعون له حرمة ، ويطاردونه بالسخريات والأزجال العابثة . ويهتف الشيخ :



تتقاطر النسوان على مجلسه

— ملعونة المدارس المفتوحة لكم .

وتسوء حاله ، وصحته أيضا . ويتوعد الناس والزمان بعقاب الآخرة ، ويتحسر على أيام الطيبين الذاهبين .

* * *

وأخيرا يسلم للزمن ، يتسول ، يمضى هاتفا مادا يده ﴿ كل من عليها فان ﴾ .

الحكاية رقم « ٦٦ »

وراء قضبان بدروم يلوح وجه صبى صغير . إذا رأى عابر سبيل أليف المنظر هتف به :

— يا عم ..

فيقف العابر ويسأله عما يريد فيقول :

— أريد أن أخرج .

— وماذا يمنعك ؟

— باب الحجرة مغلق .

— ألا يوجد أحد معك ؟

— كلا .

— أين أمك ؟

— أغلقت الباب وذهبت .

ـ وأبوك ؟

ـ سافر من زمان .

ويدرك العابر الموقف على نحو ما فيبتسم إليه مشجعا ويذهب ، ويلوح وجه الصبى الصغير وراء القضبان وهو يتطلع بشوق إلى الناس والطريق .

الحكاية رقم « ٦٧ »

عبده السكرى ابن أحد حملة القماقم والمباخر . أسرة فقيرة كثيرة العدد تضمها حجرة واحدة . كان عبده آخر العنقود فأدخله عم السكرى الكتاب فأحرز التفوق من أول يوم . ونصحه سيدنا الشيخ بإلحاقه بالمدرسة الابتدائية فتردد الرجل مليا بين إرساله إلى معلم ليحترف حرفة وبين طريق المدرسة الطويل ، ثم قرر فى النهاية إلحاقه بالمدرسة . كان قرارا صعبا ، يعنى أن يعيش عبده عالة عليه دهرا طويلا بدلا من أن يعينه بيوميته ، ولكن تفوق عبده أنساه متاعبه ونفخ جناحيه بالفخر . وعند انتهاء المرحلة الابتدائية قال عم السكرى بزهو :

ـ أصبح لى ابن من موظفى الحكومة !

ـ ولكن عبده أصر على دخول المرحلة الثانوية . كان يمضى إلى المدرسة ببدلته القديمة المتهرئة وحذائه المرقع وطربوشه المزيت ولكن مرفوع الرأس بتفوقه ويتكلم فى السياسة أيضا . واستحق بعد ذلك أن يقبل بمدرسة المهندسخانة بالمجان ، وأن يختار بعد ذلك عضوا بالبعثة

بإنجلترا . من يومها أطلق على عم السكرى « أبو المهندس » ، وذاع صيته فى الحارة ، وضرب بذكاء ابنه المثل . كان حلم عم السكرى فى شبابه أن ينضم إلى عصابة فتوة أو ينتصر فى خناقه ولكن الزمن يتغير ويأتى بالأعاجيب .

* * *

ويشغل عبده وظيفة مرموقة فى الوزارة ، وبفضله قام أول مصباح غازى فى حارتنا .

الحكاية رقم « ٦٨ »

من حكايات حارتنا التى لا تنسى حكاية عبدون اللاّله .

الأب كان عاملا فى البوظة والأم بياعة باذنجان مخلل . أما عبدون فيعمل صبيا فى الفرن .

يجىء بالعجين ويذهب بالخبز ولكنه شاب ولا كل الشبان . يحب سلمى بنت ونس الكناس فيتزوج منها ويمارس حياة زوجية سعيدة وهادئة .

نشيط ذو همة عالية ، يعمل من طلعة الصبح حتى أول الليل ، لا يرتاح ولا يهمد ، لا يتذمر ولا يشكو ، المعلم يقدره والزبائن يحبونه . يصلى العشاء فى الزاوية ، يحضر الدرس ، يؤاخى الإمام ويسترشد بآرائه فيما يعن له من مشكلات . نزهته الوحيدة سماع الشاعر فى المقهى ثم يرجع إلى

بيته متسوقا بطيخة أو خيارا أو سمكا مقليا .

وهو حليم يتحمل نزوات المعلم ، وسخافات بعض الزبائن ، وسخريات الأصدقاء بأدب وابتسام .

ما أعجبه فى حارتنا ، كأنه لا يسمع سبابها ولا يشهد منازعاتها ولا يتعامل مع أهل المعاصى والفتن من أهلها .

* * *

وذات يوم يظهر فى الحارة بجلباب أبيض كالحليب وطاقية مزركشة ومركوب أحمر . وكلما التقى بصاحب عانقه أو بذى مقام قبل يده ، وقد أضرب عن العمل ، ولم ينطق فى ذلك اليوم إلا بجملة واحدة قال :

— اقتربت الساعة .

ويختفى ساعة ثم يلوح فوق سطح القبو وهو يستقبل الحارة بوجهه صامتا . ويتعجب الناس ويتجمهرون عند القبو . كيف صعد عبدون إلى سطح القبو ؟، ماذا يفعل فى مرتع الثعابين ووكر العفاريت ؟

ينادونه فلا يرد .

ثم يثب من أعلى السطح فيتهاوى حتى يرتطم بعنف بأرض الحارة ..

وأقول لنفسى كلما تذكرت مصرع عبدون اللألّه :

— أن أعرف لماذا أحيا أسهل كثيرا من أن أعرف لماذا عبدون انتحر .

الحكاية رقم « ٦٩ »

نادرا ما يخرج إلى الحارة ، وإذ يخرج لحاجة يمضى مهرولا ، فى عينيه حذر وتوجس ، فى أذنيه صمم يغلقهما دون اللعن ويفتحهما لما ينتفع به ، لا يخترق القبو ، لا يزور المقابر . يعيش وحيدا فى بدروم ، لم يتزوج ، لم يذعن لنزوة ، يقرض النقود بالربا يدعى أبو المكارم .

ويلعنه الناس ولكنهم يقصدونه عند الضرورة .

وبلغ السبعين من العمر ، يتجمع لديه مال وفير ، ثم يكف عن العمل .

يتغير حاله ، تظهر عليه أعراض غريبة ، يرى من نافذة البدروم وهو متربع على الأرض مستقبلا الجدار بوجهه ، تمضى الساعات وهو لا يتحرك .

ويذهب ذات مساء إلى الإمام فيقف أمامه صامتا حتى يسأله الشيخ :

ـــ لماذا جاء أبو المكارم ؟

فيقول بلا مقدمات :

ـــ حلمت حلما ..

فيسأله عنه فيقول :

ـــ جاءنى شخص فى المنام وأمرنى بأن أحرق مالى عن آخره !

فيبتسم الإمام ويقول :

— ربنا يجعله خيرا .

— ولكنه يتكرر ليلة بعد أخرى !

— ما شكل ذلك الزائر ؟

— لا أدرى ، جفناى ينطبقان فى حضرته .

فيسأله الإمام باهتمام :

— من نوره ؟

— أظن ذلك ..

— هل أعلن عن هويته ؟

— كلا .

فيصمت الإمام مليا ثم يقول :

— أتستطيع أن تتصدق بمالك على الفقراء ؟

فيرمقه بريبة ثم يذهب .

وذات يوم من أيام الصيف وأديم الأرض والجدران تشتعل بنار الشمس المحرقة يتنبه الناس إلى دخان يتصاعد من نافذة بدروم أبو المكارم . يهرعون إلى النافذة فيرون أبو المكارم واقفا عاريا تماما والنار تشتعل فى ماله .

* * *

ويهيم بعد ذلك على وجهه عاريا ، يلتقط الطعام من أكوام القمامة ، ثم يقبع فى ظلمة القبو . ويعثر عليه يوما ميتا تحت القبو فيدفن فى قبور الصدقة .

ويرى أحد الأعيان حلما ، يزوره سيدنا الخضر ويبلغه أن أبو المكارم ولى من أولياء الله وأنه — العين — مكلف بإقامة ضريح فوق قبره .

ويقيم الرجل الضريح ، وبمرور الزمن تتلاشى ذكريات أبو المكارم وتبقى له الولاية .

وأسأل أبى :

ـــ وكيف عرف الوجيه أن سيدنا الخضر هو الذى زاره فى المنام ؟.

فيجيبنى :

ـــ لعله صارحه بذلك .

فأسأل :

ـــ لو كان أبو المكارم وليا حقا ألم يكن الأفضل أن يتصدق بماله على الفقراء ؟

ـــ فى تلك الحال كنا نعده محسنا لا وليا !

ثم يستطرد بعد صمت :

ـــ العبرة بالحلم ، لقد من الله عليه بحلم ، فهل تملك أنت حلما مثله ؟

الحكاية رقم « ٧٠ »

سحب الخريف تتراكم فتقطر قتامة على حارتنا ، ها هم الباعة يترنمون بحلاوة الجوافة والبطاطا .

ويشير رجل نحو القبو ويهتف :

ـــ يا ألطاف الله !

ينظرون فيرون رجلا خارجا من ظلمات القبو ، عاريا كما ولدته أمه ،

يتأوه ويترنح ، تخذله ساقاه فيقع على الأرض ، ثم ينهض متشبثا بالجدران ، يتلفت حواليه ويبكى .

يهرع إليه أهل الخير ، يغطونه ، يضمدون جرحا غائرا فى رأسه ، يسألونه :

— ماذا حدث لك ؟

ولكنه لا يجيب فيسألونه :

— من أنت ، ما اسمك ؟

يواصل أنينه بلا جواب فيسألونه :

— من أين أتيت ؟

لا جواب ولا أمل فى جواب :

— أى مكان تقصد ؟

وبالتخمين وحده يعرف على نحو مَّا ما وقع له ، فيؤمن الجميع بأنه ضحية لقطاع الطرق .

ويندمل الجرح ولكن العقل يذهب فيصبح من أهل اللطف ويعيش فى الحارة لا يبرحها ، آنسا إلى ما يلقى من ستر ورحمة ، تطعمه الصدقات ، ينام تحت القبو شتاء ، وعند سور التكية صيفا ، كلامه هذيان أو أصوات مبهمة ، يضحك ويبكى لغير ما سبب ، ويظل مجهول الاسم والأصل والهوية والهدف .

ولما كانت دواعى الإهمال والاحتقار هى نفس دواعى الإجلال والتعظيم فى حارتنا فإن عبد الله — هكذا سمى باعتباره اسم من لا اسم له — يحتل مع الأيام مكانة سامية وتتحلق حوله هالة مبهمة من القداسة. يحيونه،

بلا طفونه ، يتوددون إليه ، يحيطونه بأسرار ، يؤولون أصواته المبهمة ، يتوارون وراءه إزاء المصائب المجهولة والأقدار الخفية .

وأسمع ذات يوم رجلا يدافع عن « ولاية » عبد الله فيقول :

ــ أى فرد منا لا تتيسر له الحياة إلا بفضل معرفته للأصل الذى جاء منه والهدف الذى يسعى إليه ، أما عبد الله فقد تيسرت له الحياة وحظى ببركاتها مع جهله بكل ذلك ، ومن ينعم بملكوت الحياة وهو يجهل أصله وهدفه ومعنى حياته جدير بالولاية والتقديس !

الحكاية رقم « ٧١ »

رجل غريب فى المقهى .

الغريب فى حارتنا يسترعى النظر ، فمن أين جاء الرجل ؟

جاء من ناحية القبو وهو ما يعنى أنه جاء من ناحية القرافة غير مبارك الخطوات .

ويمضى الغريب إلى الزاوية فيسلم على الإمام وهو يقول :

ــ لا خاب من استرشد .

فيقول له الإمام :

ــ نهديك بما نعلم والهداية من الله .

ــ إنما أريد معلومات عن يوسف المرّ ؟

ــ لماذا يا أخى ؟

ـــ كلفنى بذلك أناس طيبون وأنت سيد العارفين .

فأدرك الإمام أن الرجل ينشد المعلومات لحساب أهل فتاة يريد يوسف أن يتزوج منها فقال :

ـــ ولكنه متزوج !

ـــ الدين يسر والحمد لله ..

ـــ عائلة المرّ قديمة فى الحارة وحرفتهم العطارة .

ـــ وعمره ؟

ـــ فى الثلاثين ، يعمل فى دكان أبيه ، له ثلاثة أبناء .

ـــ يغيب أحيانا عن الحارة أسبوعا أو أكثر ؟

فيبتسم الإمام ويقول :

ـــ يبدو أنك تعرف عنه الكثير ، ولكنه يغيب فى رحلات تجارية .

ثم يتساءل الإمام :

ـــ من الذى كلفك بالتحرى ؟

فيقول معتذرا :

ـــ لست فى حل من ذكره .

فيتضايق الإمام ويسأل بجفاء :

ـــ وحضرتك من تكون ؟

ـــ أدعى عبد الآخر المقاول .

ـــ أى مقاولات ؟

ـــ كلا ، إنه لقبى ، أما عملى فطحان غلال .

ويودعه ثم ينصرف .

ويتناهى الخبر إلى يوسف فيدهش فيحلف بالله على أنه لا يسعى لزواج جديد وما خطر له ذلك على بال ، وتكثر التساؤلات عن الغريب وسره ، تحتدم مليا ثم تخف وتتلاشى .

وذات مساء يرى الغريب قادما من ناحية الميدان .

يشق الحارة بلا توقف حتى يختفى فى القبو ، ثم يميل إلى الممر الضيق بين السور العتيق وبين سور التكية ويمضى نحو القرافة .

ويعلم يوسف المرّ بخبره فينطلق فى أثره حتى يغوص فى ظلمة القبو .

وتمضى ساعة فيقلق الأب ، ويذهب فى أثر ابنه حاملا فانوسا لينير له الطريق مصحوبا ببعض عماله .

فى القبو تترامى إليهم تراتيل الأوردة الأعجمية آتية من التكية ، وفى الساحة ، وعلى ضوء الفانوس ، يعثرون على يوسف المر مطروحا على الأرض وقد فارق الحياة .

ومع أن الطبيب الشرعى قرر فيما بعد أن الرجل مات بالسكتة إلا أن قراره لم يحترم لحظه واحدة فى حارتنا .

يهزون رءوسهم ويتمتمون :

ــ الرجل الغريب !

ولكن من الغريب ؟، و لم قتل يوسف المر ؟

هنا تتبادل النظرات وتتناجى الهمسات وتتداح فى الجو موجة من الأسرار الخارقة .

الحكاية رقم « ٧٢ »

وعكلة الصرماتى حكايته حكاية .

كان أبوه صاحب سيرك ، كان قويا وخلاقا . يشتهر عكلة منذ صباه بالرشاقة الخلابة فى الملعب .

يتوفى الأب فيهجر الابن السيرك بلا سبب مقنع . ينضم إلى عصابة فتوة فيثبت صلابته وينال حظا من الثروة . وهو ذو رائحة خفية تجذب أشواق النساء فيستوى على عرش الهوى فتنة للقلوب ، ويوغر صدور الرجال حتى يقول له الفتوة :

ـ تأدب وإلا شوهت وجهك .

وكأن قلبه لا يعرف الحب الحقيقى ، يهيم بالمرأة حينا ثم ينبذها ، وتفوق غزواته كل خياله ، ويؤمن أناس بأنه يؤاخى الشياطين ويستعمل السحر .

وفجأة يتزوج .

يتزوج من أرملة تكبره بأعوام لا جمال لها ، ويستقر فى بيت الزوجية استقرارا يبشر بالدوام .

ويزهد فى الفتونة كما زهد فى السيرك من قبل ويفتح دكان حلوى ، ويربح ثروة لا بأس بها .

وبعد أعوام قليلة يسأم تجارته الرابحة فيصفيها ويفتح مطعم لحمة رأس

وكبدة فينجح ويحقق ثروة أكبر من الأولى .

ويجتاحه حب المال ، يحل من نفسه محل النساء والسيرك والفتونة فيتاجر فى المخدرات والأراضى ، ويبتاع بيتا ودوكارا ويتحلى بالذهب .

ويقرر ذات يوم أن ينقل مقامه من الحارة إلى المدينة الكبيرة . يبنى قصرا ويعيش عيشة الأكابر ، ويشترى عزبة ، ثم لا يرى فى حارتنا إلا عند عقد الصفقات .

ويعشق الترحل ، وما أن يجربه حتى يخلب لبه ، فهو يوما بالإسكندرية ويوما فى أسوان ، ويزور البلاد العربية ، بل ويغامر برحلات فى أوروبا .

عندما تعجبه بقعة من الأرض يفتتن بها ويصرح بأنه لن يبرحها حتى نهاية العمر ، ثم يعتادها ويروم غيرها ، ويعذبه عشق الأماكن كما عذبه عشق النساء والمال وغيرها من قبل ، وبين كل رحلة وأخرى يرجع إلى حارتنا لرؤية الأصدقاء وعقد الصفقات .

ويجلس ذات مساء بين أصدقائه من تجار المخدرات فيتساءل :

ــ ماذا يمكن أن يصنع الإنسان أيضا ؟

ويحدثهم عن رحلاته وهم يتابعونه بغير مبالاة شأن من لا يغادر الحارة إلا لضرورة .

ويتساءل عكلة :

ــ ترى أين جبال الواق ؟

ثم يتساءل مرة أخرى :

ــ وأين سور الدنيا ؟. وإذا أطل الإنسان منه فماذا يجد ؟

* * *

وتترامى عنه أخبار وأخبار .

يقال إنه أدمن الشراب ، يقال إنه يدمن المقامرة ، يقال إنه يرتكب حماقات لا عد لها ولا حصر .

ويطول غيابه فى الخارج حتى يظن أنه لن يرجع .

واعتبره الأهل مفقودا .

وتمضى السنون .

وذات صباح يعثر على جثة كهل فى الساحة أمام التكية شبه عار .

ويتعرف أهل حارتنا فيه على عكلة الصرماتى . ينظرون إلى جثته ذاهلين متسائلين وهو معزول عنهم بالصمت الأبدى والسر المنطوى .

كانت حياته أسطورة ، وموته لطمة .

الحكاية رقم « ٧٣ »

مصطفى الدهشورى ابن سقاء ولكنه من القلة الراسخة فى العلم فى حارتنا ، وهو أحد المدرسين بمدرستنا وصديق لأبى .

يسأل أبى وهو يجالسه ذات مساء فى بيتنا :

ـــ ما معنى الحياة ؟

يبتسم ، ولما يجده جادا فى سؤاله ومصرا عليه يحدثه بما يعلم عن الأصل والهدف ، والحياة والموت ، والبعث والحساب ، فيقول الدهشورى :

ـــ إذن فأنت واثق من كل شىء ، من الحياة والموت وما بعد الموت ،

أعندك فكرة عما يحدث فى القبر ؟

فيحدثه أبى عن التلقين وحساب الملكين ومستقر الروح وشفاعة النجاة فى الآخرة ، وعند ذلك يقول الدهشورى :

— إليك قصة الجسد البشرى ساعة بساعة من الوفاة حتى يستحيل هيكلا عظيما ..

ويردد حديثا مرعبا ومقززا كأنه كابوس طويل ، فيهتف أبى محتجا :

— كفى ، ماذا تريد ؟

— أريد أن أصور لك حقيقة لا شك فيها .

فيسأله أبى ساخرا :

— ألا تؤمن بالله ؟

فيبتسم قائلا :

— بلى ، لا حيلة فى ذلك .

ثم يواصل حديثه :

— ولكنه لا يتصل بى وأنا عاجز عن الاتصال به ، بيننا صمت قاتل وأرى فى الحالة شرا لا تفسير له ، وأرى فى الطبيعة عجزا ونقصا ، ولا أفهم لذلك معنى ، فلم أشك فى أنه — سبحانه — قرر أن يتركنا لأنفسنا ، بلا اتصال وبلا عناية ..

ويصارحه أبى بأنه يجدف تجديفا خطيرا ، ولكن الدهشورى يستمر قائلا :

— وإذن فالإيمان بالله يقتضى الإيمان بتجاهله لعالمنا ، كما يقتضى منها الاعتماد الكلى على النفس وحدها .

وسأله أبى غاضبا :

ـــ أتتخيل حال الناس لو آمنوا بفكرتك ؟

ـــ لن يكونوا أسوأ مما هم بحال من الأحوال وثمة أمل بأن يكونوا أحسن .

ثم يشرح فكرته قائلا :

ـــ لا تخش أن يأخذ الناس الحياة مأخذ العبث إذ أنها أمانة ملقاة علينا ، ولا مفر من حملها بكل جدية وإلا هلكنا ، وإذا أمكن أن يوجد أحيانا أمثال الخيام وأبى نواس فإنما يوجدون لا بفضل فلسفتهم ولكن بفضل الجادين الكادحين الذين يقومون بحمل الأمانة عنهم ، ولو اعتنق الجميع مذهب العبث فمن يصنع لهم الخبز والخمر والرياض ؟، وإذن فلا تخش أن يأخذ الناس الحياة مأخذ اللهو إن وجدوا أنفسهم فى عالم بلا إله ، لا مفر من الجدية ، ومن الإبداع ، ومن الأخلاق ، ومن القانون ، ومن العقاب ، وقد يستعينون أيضا بالعقاقير الطبية لمقاومة الضعف فى السلوك والتفكير كما يستعينون بها فى مقاومة الأمراض ، وسيفعلون ذلك بإصرار ، ولن تهن عزيمتهم بسبب أنهم يجدون أنفسهم فى سفينة بلا مرشد فى بحر بلا شطئان فى زمن بلا بداية ولا نهاية ، ولن تختفى البطولة ولا النبل ولا الاستشهاد .

ويتريث قليلا متسامحا مع غضب أبى وسخريته ثم يستطرد .

ـــ وذات يوم سيحقق الإنسان نوعا من الكمال فى نفسه ومجتمعه ، وعند ذاك ، وعند ذاك فقط ، ستسمح له شخصيته الجديدة بإدراك معنى الألوهية وتتجلى له حقيقتها الأبدية ..

ويتواصل النقاش حتى ينال منهما التعب ، ثم يتساءل مصطفى

الدهشورى باهتمام :

ـــ كيف يمكن أن أنشر أفكارى فى حارتنا ؟

فيقول له أبى بحدة :

ـــ أهل حارتنا غارقون فى هموم الحياة اليومية ، يطحنهم الفقر والجهل والبطش والعداوة .

ـــ ولكنها مشكلات لا تحل الحل الأمثل إلا بأفكارى ؟

ـــ أهل حارتنا لا يفهمون إلا لغة واحدة هى اللغة المشتقة من همومهم ، الحاوية لعذاباتهم ، المقدسة بأوراد الكائن المرجو عند الشدة الذى تريد أن تنتزعه من قلوبهم .

ورغم حرص مصطفى الدهشورى تنسب إليه أفكار خارقة تسىء إلى سمعته بين الناس فيثير لغطا يفصل بسببه من وظيفته وتتجهمه الحياة فى حارتنا .

الحكاية رقم « ٧٤ »

الأعور يتأهل لموعد غرامى فى الساحة أمام التكية . يعزم على إنعاش شجاعته بكم قرعة من البوظة ولكنه يسترسل فى الشرب حتى يفقد ذاته تماما .

يغادر الخمارة عقب منتصف الليل فيذوب فى الظلام ، ويذوب فى الحب ، ولا يدرى أين يتجه ، يرتطم فى الظلام بنؤنؤ المجنون وهو يهيم على وجهه حيث إن جنونه غير مؤذ ، فيقبض على ذراعه دون أن يعرفه ، ويقول له :

ـــ أرشدنى إلى طريق التكية .

فيتحرك نؤنؤ المجنون وهو يقول له :

ـــ لا تترك ذراعى .. لماذا تريد التكية فى هذه الساعة من الليل ؟

ـــ أتريد الحق ؟. إنى ذاهب للقاء حبيبتى .

ـــ عظيم .. وأنا ذاهب أيضا للقاء حبيبتى .

ـــ فى الساحة مثلى ؟

ـــ بل فى التكية نفسها .

ـــ ولكن الأسوار عالية :

ـــ لا مستحيل فى الليل .

ويكاد الأعور أن يسقط من شدة الترنح فيقول متشكيا :

— نحن نسير منذ عام و لم نصل بعد ؟

— لم يمض على سيرنا إلا أسبوع واحد .

فيعتذر الأعور عن خطئه فيقول :

— الزمن لا يرى فى الظلام .

— والمحبوبة هل ترى فى الظلام ؟

فيضحك السكران ويقول :

— إنى لا أعتمد على عينى للتعرف على المحبوبة .

— إذن فأنت مجنون !

— ولكن أين التكية ؟

— نحن لم نسر بشهادتك إلا أسبوعا واحدا .

— ولكنى أقطع الحارة نهارا فى ربع ساعة .

— فى الليل تطول المسافة ، ألا ترى أننا لا نتوقف عن السير ؟

ويدوخ الأعور ، وتعجز ساقاه عن حمله ، فيسقط على وجهه ، ويروح فى سبات عميق لا يستيقظ منه إلا مع أول شعاع للشمس . ينظر فيما حوله بذهول فيجد نفسه أمام الخمارة لم يبتعد عنها خطوة واحدة .

* * *

ويقول راوى هذه الحكاية — صبى الخمارة — أنه كان يقف عند الباب ، يسمع حوار السكران والمجنون ، ويراهما وهما يدوران حول نفسيهما متوهمين أنهما يتقدمان .

ومن يومها والمثل يضرب بهذه الحكاية فى حارتنا فيقال لمن يسترشد بمن لا يرشد : « أنت سكران وهو مجنون فكيف تصلان إلى التكية ؟ » .



نحن نسير منذ عام و لم نصل بعد ؟

الحكاية رقم « ٧٥ »

يدخل عمر المرجانى البوظة فى غاية من الأبهة والأناقة .

جلبابه الأبيض يشع نورا ، عمامته المقلوظة تتوج رأسه ، مركوبه الأحمر يتألق ، تحت إبطه خيزرانة رشيقة .

يحيى الحاضرين ببشر ويقول :

ـــ لتمتلئ قلوبكم بالهنا والأفراح .

ويكرع أول قرعة فتتحرك النشوة فى أعماقه ويبتسم .

وعقب القرعة الثانية تعانقه فرحة شاملة فيهتز طربا ويقول لمن حوله :

ـــ صدقونى أن الحزن فى هذه الدنيا ليس إلا وهما عابرا .

ويفرغ القرعة الثالثة فى جوفه ويقول :

ـــ ملعون من يلعن الدنيا ، لقمة حلوة ومرة حلوة وإيمان حلو ، ماذا تريدون بعد ذلك ؟

ويقف برشاقة فيلعب بعصاه ويقول :

ـــ أنا سعيد يا جدعان ..

ويرقص بخفة وبهجة ..

وإذا بصوت خشن لم يحدد مصدره يهتف به :

ـــ نريد الهدوء .

ولكنه يواصل الرقص ، ويأخذ فى الغناء أيضا :

شوفوا العجب حبيت فلاحة

فيعود الصوت الخشن قائلا :

— احترم نفسك واجلس ..

ولكنه يستمر فى معانقة الفرحة ..

ويرتفع نبوت فى الهواء ثم يهوى على رأسه ..

عند ذاك يتوقف عن الرقص ، يسكت عن الغناء ، تتصلب سحنته نافضة عنها لآلئ السعادة .. ثم يتهاوى على الأرض ..

الحكاية رقم « ٧٦ »

بسرعة الشهب انتشر خبر يقول إن الحكومة ستهدم التكية ضمن مشروع للمرافق العامة . فى لحظة يصير حديث البيوت والدكاكين والوكالات والغرز والبوظة والخرابات فى حارتنا .

— حارتنا ميمونة ببركة التكية .

— الخضرة والأزهار لا ترى إلا فى التكية .

— والأغنيات الإلهية أين تسمع إلا فى التكية .

— وما المكان الذى لم يضمر أذى لإنسان إلا التكية .

وبالبحث والتحرى تكشف حقيقة غريبة وهى أن صاحب المشروع هو المهندس عبده السكرى ابن حارتنا !

ويقول عبده :

ـــ التكية تعترض مجرى الحارة كالسد وتحول دون انطلاقنـــا نحو الشمال .

فيقولون له :

ـــ وهل علمت أننا متضايقون من ذلك ؟. وألا يوجد أكثر من سبيل إلى الشمال ؟

ـــ لا تنسوا أن القرافة ستنقل عما قريب إلى صحراء الخفير وسيحل محلها عمران شامل .

ـــ طول عمرنا نسمع أن القرافة ستنقل وها هى باقية لا تتحرك ، فكيف هان عليك أن تقترح إزالة التكية المباركة ؟

واشتد النقاش ، وحمى الانفعال ، وكتبت العرائض ، وحل بحارتنا توتر وحزن لم تعرفهما من قبل .

ويرتفع صوت معتدل يقول :

ـــ لا وجه للعجلة ، فلننتظر حتى يتقرر بصفة نهائية نقل القرافة ويشرع فى ذلك بالفعل ، عند ذاك يحق لنا أن نناقش مسألة هدم التكية .

وغلب هذا الرأى فتراجعت الوزارة وتأجل المشروع .

أما الأكثرية فقد رفضت الفكرة جملة وتفصيلا .

وأما القلة المعتدلة فهى تقول :

ـــ فلتبق التكية ما بقيت القرافة .

الحكاية رقم « ٧٧ »

أنور جلال جالس على سلم السبيل الأثرى وهو يضحك عاليا. أنظر إليه فيخطر لى أنه سكران أو مسطول فأمضى نحوه وأجلس إلى جانبه ثم أسأله :

ـــ ماذا يضحكك ؟

فيجيبنى وهو لا يكف عن الضحك :

ـــ تذكرت أننى طالب بين طلبة متنافسين ، فى مدرسة تجمع بين طلبة الأزقة المتخاصمة ، فى حارة وسط حارات متعادية ، وأنى كائن بين ملايين الكائنات المنظورة وغير المنظورة ، فى كرة أرضية تهيم وسط مجموعة شمسية لا سلطان لى عليها ، والمجموعة ضائعة فى سديم هائل ، والسديم تائه فى كون لا نهائى ، وأن الحياة التى أنتمى إليها مثل نقطة الندى فوق ورقة شجرة فارعة ، وأن على أن أسلم بذلك كله ثم أعيش لأهتم بالأحزان والأفراح ، لذلك لا أتمالك نفسى من الضحك .

فأضحك معه طويلا حتى يحدجنى بنظرة ساخرة ويسألنى :

ـــ هل تضمن أن تشرق الشمس غدا ؟

فأقول بثقة :

ـــ أستطيع أن أراهن على ذلك .

فيقول وهو يضحك :

ـــ طوبى للحمقى فهم السعداء .

الحكاية رقم « ٧٨ »

عرفت الشيخ عمر فكرى فى بيتنا وهو فى زيارة لأبى . هو كاتب محام متقاعد ، فتح عقب تقاعده مكتبا للأعمال لمعاونة أهل حارتنا فى شئون الحياة بعد أن توثقت أسباب الاتصال بين الحارة وبين المدينة الكبيرة . ويقع مكتبه فيما بين الزاوية والمدرسة ، ويقدم خدمات متنوعة للقاصدين مثل تأجير البيوت ونقل الأثاث وتجهيز الجنازات والسمسرة التجارية وشئون الزواج والطلاق .

سمعته وهو يقول لأبى بكل ثقة واعتزاز :

ـــ من خبرتى الطويلة أستطيع أن أقدم شتى الخدمات فى أى ميدان من ميادين الحياة !

تحركت فى أعماق رغبة قديمة كامنة فسألته :

ـــ أتستطيع أن تقدم لى خدمة ؟

فنظر إلى باسما وسألنى :

ـــ ماذا تريد يا بنى ؟

ـــ أريد رؤية شيخ التكية الأكبر !

فضحك الشيخ عمر عاليا وشاركه أبى ثم قال :

ـــ إن الخدمات التى أقدمها جدية وتتعلق بجوهر الحياة العملية !

ـــ ولكنك قلت إنك تقدم شتى الخدمات فى أى ميدان من ميادين

الحياة .

— ولكن التكية خارج أسوار الحياة ؟

— هى ليست كذلك فى الواقع .

وقال لى أبى :

— أسمعه بعض ما تحفظ من أشعارها .

فرددت بسرور :

— بلبلى خون دلى خورد وكلى حاصل كرد .

فقال الشيخ عمر فكرى مخاطبا أبى :

— ما أكثر الذين يرددون هذه الأشعار بلا فهم « ثم ناظرا نحوى » أتفهم معنى كلمة واحدة مما رددت ؟

فهززت رأسى نفيا فقال :

— إنهم غرباء ذوو لغة غريبة ولكن حارتنا مجنونة بهم .

فقلت له :

— إنك قادر على كل شىء .

فتمتم أبى .

— أستغفر الله العظيم .

وسألنى الشيخ :

— وما أهمية رؤية شيخ الدراويش لك ؟

— لأتأكد من تجربة مرت بى فى طفولتى .

وقص عليه أبى قصتى القديمة فضحك الشيخ عمر وقال :

— أعترف لكما بأننى رغبت ذات يوم فى رؤية الشيخ الأكبر .

ـــ حقا ؟!

ـــ قلت لنفسى إن الحارة كلها تردد ذكره رغم أنه لا يكاد يزعم أحد أنه رآه وولعت بفكرة رؤيته ولع الأطفال ، ماذا يحول بينى وبين ذلك ؟، ومضيت إلى التكية ، طلبت مقابلة أى مسئول بها ولكنهم لاقونى من وراء السور بتجهم وقلق ، ولم يبدوا أى استعداد للتفاهم ، تكلمت بالإشارة فأجفلوا وأوجسوا خيفة ، حتى أسفت على ما أحدثت لهم من اضطراب ، ورجعت معترفا بحماقتى ، يائسا من تحقيق فكرتى بالاتصال المباشر ، مقتنعا فى الوقت نفسه بأن اقتحام التكية بالطريق المشروع متعذر أو مستحيل ، وأن اقتحامها بالتسلل خرق للقانون لا شك فيه لا يتوقع من رجل يقوم عمله فى الحياة على احترام القانون .

ـــ هكذا عدلت عن رغبتك ؟

ـــ لم أعدل عنها كما ظننت ، ولكننى جربت وسيلة ثانية طفت بالطاعنين فى السن من أهل حارتنا ممن عرفوا بالتقوى فادعى بعضهم أنهم رأوه ولكن لم يتفق اثنان منهم على وصف محدد له ، اختلفوا لحد التناقض ، وهذا يعنى فى نظرى أن أحدا منهم لم يره .

فقلت بحماس :

ـــ ولكنى رأيته .

ـــ انكم لا تكذبون ولكنكم تتخيلون .

ـــ وما وجه الاستحالة فى رؤيته ، ألا يخطر له أحيانا أن يتمشى فى الحديقة مثلا ؟

ـــ ومن أين تعلم أن الذى تراه هو الشيخ الأكبر وليس درويشا من

الدراويش ؟

ـــ وهكذا نفضت يدك من المسألة ؟

ـــ أبدا ، كنت مجنونا أكثر مما تتصور ، ذهبت إلى ديوان الأوقاف متحديا ، حصلت على معلومات لا بأس بها عن أوقاف التكية وعن فرقتهم الصوفية ، عن الدرويش المخصص لتسلم الريع ، ولكن لم أعثر على كلمة واحدة تخص الشيخ الأكبر فضلا عن كراماته التى تؤمن بها حارتنا .

فغصصت بالخيبة ورمقته بحنق ثم قلت :

ـــ توجد وسائل أخرى ولا شك ؟

فقال باسما :

ـــ يوجد العقل ، هو الذى خلصنى من رغبتى المحمومة ، قال لى إننا نرى التكية والدراويش ولا نرى الشيخ الأكبر !

فسأله أبى :

ـــ هل يصلح هذا دليلا على عدم وجوده ؟

ـــ إنه لا يقول ذلك ، إنه يقرر حقيقة نعرفها جميعا وهى أننا نرى التكية والدروايش ولا نرى الشيخ الأكبر .

فقلت :

ـــ ولكن توجد وسيلة ولا شك للتثبت من وجوده ومن رؤيته ؟

ـــ لن يتأتى ذلك بالطرق المشروعة فيما أعتقد ، وإنى كما تعلم لا أحيد عن القانون أبدا .

فضحك أبى وقال :

ـــ اعترف أنه توجد خدمة واحدة على الأقل لا تستطيع أن تؤديها

يا شيخ عمر .

فجاراه فى ضحكه قائلا :

ـــ ليكن ، ولكن ما جدوى رؤية الشيخ الأكبر ؟، ألم تكن رغبة مضحكة ؟!

فسألته بحرارة :

ـــ لم يغلقون فى وجوهنا الأبواب ؟

ـــ التكية شيدت فى الأصل فى خلاء لأنهم قوم ينشدون العزلة والبعد عن الدنيا والناس ، ولكن بمرور الزمن امتد العمران إليهم وأحاط بهم الأحياء والأموات فأغلقوا الأبواب كوسيلة أخيرة لتحقيق العزلة .

وابتسم ابتسامة فاترة وقال :

ـــ لقد مددتك بكافة المعلومات الممكنة وهى وإن تكن غير مجدية فى تحقيق رغبتك إلا أنها قاطعة فى أنه لا يمكن تحقيق الرغبة إلا بوسيلة غير مشروعة خارقة للقانون .

* * *

تلك ذكرى لا تنسى .

وحتى اليوم لم أجد الشجاعة الكافية لمخالفة القانون ، ولكننى فى الوقت نفسه لا أستطيع تصور تكية بلا شيخ أكبر .

وبمضى الأيام لم أعد أرى التكية إلا فى موسم زيارة المقابر ، فألقى عليها نظرة باسمة ، وأستقبل ذكرى أو أكثر ، وأحاول أن أتذكر صورة الشيخ أو من توهمت ذات مرة أنه الشيخ ، ثم أمضى نحو الممر الضيق الموصل إلى القرافة .

رقم الإيداع ٢٥٦٦
الترقيم الدولى X ــ ٢٣٢ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه